البطاقات القرآنية

من سورة الفاتحة إلى سورة الحج

جمع وإعداد

أ.نجـــلاء السبيّـــل

الطبعـة الثانيـــة

سورة الفاتحة

فاتحة القلوب، وفاتحة الصلاة، وفاتحة الخير، وفاتحة النور لمن فقهها.

سميت بفاتحة الكتاب كما في صحيح مسلم من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما -، حين قال جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌ قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منهما إلا أعطيته».

هي أول ما يكتبهُ الكاتب في المصحف، وأول ما يتلوه القارئ في صلاته، وهي أم القرآن.

- أم الشيء: أعلاه وأفضله - وقد جمعت معاني القرآن وعلومه ومقاصده وهي أفضل سورة فيه.

مبنى الفاتحة على العبودية وركائز العبودية ثلاث:

المحبة والخوف والرجاء.

الْحَمْدُ لِلَّه: «محبة»

الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ: «رجاء»

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ: «خوف»

فرحم الله عبداً استشعرها وأثرت في قلبه وحياته.

﴿الْحَمْدُ لِلَّه﴾: هو الثناء على الله بصفات الكمال. محبةً وتعظيماً - أما مجرد وصفه بالكمال دون محبة وتعظيم لا يسمى حمداً إنما يسمى مدحاً.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: المربي لجميع خلقه والقائم بأمورهم وتدبير شؤونهم. تربية عامة بخلقهم، ورزقهم، وهدايتهم، لما فيه مصالحهم. تربية خاصة: وهي تربية لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له ويكمله لهم ويدفع عنهم العوائق التي تحول بينهم وبينه.

وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة من كل شر.

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾: اسمان رقيقان يدلان على سعة رحمة الله وأن رحمته تسع العباد وتشمل جميع الخلائق فهما يفتحان أوسع أبواب المحبة لله والرجاء فيه.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: المالك المتصرف ليوم الحساب ملكاً حقيقياً مطلقاً ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ هناك فقط تستوفى الحقوق كاملة حيث لا مالك ولا ملك إلا الله جل جلاله.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: تعريفٌ بالطريق الموصل إلى الله، نخصك وحدك يا الله بالعبادة ومنك وحدك نطلب العون.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: أرشدنا ووفقنا لطريق من أنعمت عليهم بالهداية وأبعدنا عن طريق المغضوب عليهم والضالين.

إنها الفاتحة: تعلمنا التوحيد، وتعلمنا الحمد، وتعلمنا الدعاء وتعلمنا الأخلاق..

نسأل الله أن يرزقنا ما في الفاتحة من فتوحات.

سورة البقرة

سـنام القرآن، وفسـطاط القرآن والفسـطاط هي الخيمة الكبـيرة ذات الأروقة الواسعة.

وسميت بفسطاط القرآن لعظمها، وتعدد أساليبها وكثرة أحكامها ومواعظها.

يقول عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة» يعني السحرة. ومن عظمتها فقد كان الرجل إذا حفظها يُعدُ سـيداً عظيماً كما قال أنس بن مالك رضـي الله عنه. وها هو عمر رضي الله عنه عندما حفظ البقرة نحر جزوراً فرحاً وحمداً لله على فضله.

سـميت بالبقرة: لورود قصـة البقرة التي حصلت في زمن موسى عليه السلام، حيث قُتل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل، فأوحى الله إليه أن يأمرهم بذبح بقرة، وأن يضـربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل، فتعنتوا و جادلوا وتشددوا حتى كادوا أن لا يذبحوها.

مقصودها وموضوعها الرئيسي التي تدور حوله: الاستخلاف في أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتبليغهم لدين الله.

وذكرت ثلاث نماذج لمن استخلفهم الله في الأرض:

- آدم عليه السلام وقد نجح في الاستخلاف.
- بنو إسرائيل فشلوا فيه.

لذا جاء الحديث عنهم مطولاً في هذه السـورة خاصـة في الجزء الأول حيث ذكر

صفاتهم التي بسببها سُـلبت منهم الخلافة وضيعوها، حيث أمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا التوراة ويعملوا بها.. خالفوا وأعرضوا وتباطؤا وتلكؤوا ففشلوا، وضـيعوا الأمانة، وضـيعوا الاسـتخلاف!! فإياكم يا أمة محمد أن تكونوا مثلهم فتفشـلوا كما فشلوا. فالله يقـول: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ سنن الله لا تحابي أحداً.

- النمـوذج الثالث هو إبراهيم عليه السـلام، أصـل الدين كله وهو من أرسـى دعائم التوحيد، وما بعث الله من نبي بعده إلا من ذريته فكانت تجربةً ناجحةً في الاستخلاف.

ثـم بدأ الجزء الثاني من السـورة: بموضـوع تحويل القبلـة إلى الكعبة إلى البيت الحرام وهذا هو محور تسليم الخلافة لهذه الأمة. ثم بدأ التشريع وبدأت الأوامر والنواهـي مـن أول قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّـوا وُجُوهَكُمْ..﴾ بدأ بأركان الإيمـان والعبوديات القلبية، ثم أحكام الجنايات والقصـاص والديات والدماء، ثم أحكام الصـيام والحج والأسـرة، والطلاق، والحضـانة والرضاع، إلى أن بدأ الجزء الثالث: الذي ختمت فيه السورة وذكرت فيه أحكام الأموال «البيع – الربا – الإنفاق – المداينة».

ثم ختمت السورة بأطول آية في القرآن وهي آية الدّين التي تتكلم عن الأموال وفي هذا إشارة أن الأموال هي منشأ النزاع بين الناس.

إذاً سورة البقرة تعطيك منهجاً، وأحكاماً وشريعةً وديناً تحققه وتبلغه للناس.... وهذا هو مقصـود الاسـتخلاف في أمة محمد صـلى الله عليه وسـلم حتى يبلغوا دين الله.

سورة آل عمران

سورة تملأ النفس إيماناً وإخباتاً وأوبةً ورجوعاً لمن عاش آياتها عيشاً تدبرياً...

سميت «بآل عمران» لورود قصة تلك الأسرة الفاضلة «آل عمران» والد مريم أم عيسى عليه السلام، وهي السورة الوحيدة التي ذُكرت فيها قصة أم مريم ردًا على النصارى الذين ألّهُوا عيسى عليه السلام.

تسمى البقرة وآل عمران بالزهراوين.. الزهراوين: أي المنيرين، فكل منير يقال له زاهر في لغة العرب.

قال صلى الله عليه وسلم: «اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران».

وقال صلى الله عليه وسلم: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أو خرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما».

قامت السورة على ركنين: الأول: ركن العقيدة، وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله.

والثاني: التشريع وخاصةً فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله.

جاء الثبات مبثوثا في آياتها:

تأمله في دعاء الراسخين في العلم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا..﴾

في ثبات المؤمنين في غزوة بدر ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا..﴾

في الثبات أمام الشهوات، وهذا ثباتٌ عزيز لايوفق له إلا من وفقه الله ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ..﴾

في ثبات النبي صلى الله عليه وسلم أمام نصارى نجران وما أثاروه من جدال حول عيسى عليه السلام وأنه ابن الله، ومباهلته لهم: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾

والمباهلة مأخوذة من الابتهال والدعاء، أي تعالوا نجتمع وندعوا ونقول اللهم العن الكاذب في شأن عيسى ابن مريم فخافوا وامتنعوا وقالوا لا نلاعنك يا أبا القاسم، نتركك على دينك وتتركنا على ديننا، وندفع لك الجزية..

في ثبات رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد بالرغم ما حصل فيها من أحداث، وهذا ما حكته الآيات من الآية ١٢١ إلى نهاية السورة.

ثم ختمت السورة بأية الثبات الكبرى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الثبات موضوع طويل، لا يتحقق أو ينتهي بموقف أو موقفين، بل هو مشروعٌ يستمر معك العمر كله حتى تلقى الله. وأنت ثابت، مستقيم، لم تتلون، ولم تتبدل، ولم ترغ كروغان الثعلب، بل ثابت متمسك بدين الله الحق وشرعه القويم..

سورة النساء

سورة مدنية، سميت بالنساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بالنساء.

يقال عنها «سورة الضعفة» لذكر الضعفة فيها بدءًا من المرأة و اليتيم و الوارث الضعيف، الموالي، المظلوم، المسافر، الخائف، المستضعف في الأرض، الكلالة.

هؤلاء الضعفة لهم حقوق أنت مطالبٌ بأدائها وإعطائها لهم، فإذا خالفت أو قصرت أو امتنعت فاعلم أنك ظلمت، والظلم شديد، عقوبته معجلة، فأعجل الأمور عقوبة وأسرعها سرعة لصاحبها في الدنيا قبل الآخرة مع ما يدخرله من العقوبة في الآخرة هو الظلم وخاصة ظلم من لا ناصر له إلا الله.

لذلك لم يأمر الله بالقسط والعدل كما أمر في هذه السورة.

تأمل أيضاً الرحمة المبثوثة في آيات سورة النساء والتي ماهي إلا رحمة بهؤلاء الضعفة.

الوصية بالأولاد ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ لتعلم أن الله أرحم بك من والديك.

الإخبار بضعف الإنسان ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾.

الأمر الصريح بعدم إهلاك النفس وقتلها ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ..﴾.

تشريع التيمم و كفارة القتل الخطأ و صلاة الخوف و قصر الصلاة للمسافر وكل هذا من التخفيف والرحمة.

التكفير الحاصل بمجرد اجتناب الكبائر.. ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾

تأمل كلمة يريد و يريد و يريد.. والتي تكررت أربع مرات ولها وقعها في النفس...!

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾

فيا من تقرأ سورة النساء انظر ماذا يريد الله منك؟

قف عندها تأملها لا تتجاوزها.. يقول قتادة: أريدوا ما أراده الله لكم: يريد الله أن يتوب عليكم، يريد الله أن يخفف عنكم، يريد الله ليبين لكم... قف لتعلم أيُّ رب رحيم كريم هو ربنا.

أيضًا تحدثت السورة عن المنافقين واليهود فما علاقتهم بالضعفة وحقوقهم؟.

هم أكثر من يضيع الحقوق ويفسد في الأرض ولا يقيم فيها العدل..!

تأمل في صفات اليهود التي وردت في السورة من تحريف الكلام وتحريف كتبهم، تزكية أنفسهم، بخلهم، حسدهم، مداهنتهم للمشركين وافتراءهم الكذب..

وتأمل أيضاً في صفات المنافقين من مداهنتهم لأهل الكتاب، عدم رغبتهم الاحتكام إلى الله ورسوله.

تثبيطهم وتخذيلهم للمؤمنين، عدم الخروج للجهاد، تبييتهم للمعصية، إشاعة الأخبار بدون تثبت.

وكل هذا من الإفساد وتضييع الحقوق..

سورة المائدة

لها عدة أسماء، سميت بسورة العقود، والمنقذة، والخيار، وأشهر أسمائها المائدة لورود قصة المائدة، فهي لم ترد إلا في هذه السورة فقط.

هي أجمع سورة في القرآن لفروع الشريعة من التحليل و التحريم، ذكرت تحليل الأنعام وذكرت المحرمات من الأطعمة وأحكام الصيد والهدي والذبائح وأحكام طعام أهل الكتاب والنكاح من نسائهم وأحكام الوصية وحد الحرابة والسرقة وكفارة اليمين، وكلها من الأوامر والعقود التي أخذها الله على أمة محمد صلى االله عليه وسلم.

نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راكبٌ على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها، وفي رواية أخرى روتها أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: «إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أنزلت عليه المائدة كلها فكانت من ثقلها تدق بعضد الناقة».

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نسائكم سورة النور».

موضوعها الرئيسي: العقود، والعقود: هي كل ما أمر الله به سواء بين العبد وربه وهي العبادات، أو بين العبد والناس وهي المعاملات.

وقد افتتح الله هذه السورة بجملة عقود أخذها على أمة محمد صلى الله عليه وسلم وألزمهم العمل بها.

ورد فيها النداء للمؤمنين ستة عشر مرة، وهذا النداء من النداءات المهمة فهو

يحمـل معنىً لطيفا، تأمل من الذي ينادي؟ الله رب العالمين.. وعادةً الذي ينادي يكـون مقبلا لا مدبرًا، فكأن المعنى الذي يتضـمنه «يا مؤمـن الله يناديك فأقبل عليـه».. وإذا استشـعر القارئ هذا المعنى تحرك الإيمان في قلبه وشـعر بأهميته وأقبل مستجيبًا ملبيًا لنداء الله.

وهذا هو السـر حين نتساءل ما العلاقة بين الوفاء بالعقود وتوسيع دائرة الحلال ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾؟

بأن الله وسع على هذه الأمة لوفائها بالعقود وكمال استجابتها وانقيادها، وضيّق على بني إسرائيل لنقضها للعقود.

شـنّت السورة حملة مكثفة على اليهود لكشـف مواقفهم وجرائمهم سواء في حق الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾

أو في حق كتبه: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾

أو في حق المؤمنين: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾

أو في حق العباد والبلاد: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾

ذكرت السورة اليهود ونقضهم للعهد وعقوبة الله لهم ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾

ذكرت النصـارى ونقضـهم للعهد والعقوبة التي حلت بهم: ﴿وَمِـنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُـوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِـهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

ذكرت قصة ابني آدم وكيف أن قابيل نقض العهد المعروف في شريعة آدم عليه السلام بأن يتزوج الذكر من هذا البطن بالأنثى من البطن الثاني.

ذكرت قصة العُرنيين ونقضهم لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلهم الراعي.

ذكرت قصة المائدة والعهد الذي أخذه عيسى عليه السلام على الحواريين.

تعلمنا سورة المائدة:

- أنك إذا أقمت صلاتك وأصلحتها صلح لك كل شيء من أمر دينك ودنياك، وساق الله لك الفرج بدون أن تحتاج لأحد ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾
- لن تبدأ بالتوبة إلا إذا حرك الله قلبك لها و حببها إليك وشرح صدرك لها، فالله يقول: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾.. فهناك أناس لم يوفقهم الله للتوبة و لم يحرك قلوبهم لها، خُذلوا والعياذ بالله، خذلتهم معاصيهم و بقوا على حالهم في دائرة من أحاطت به خطيئته.

والله أعلم بقلوب عباده من يستحق التوبة ومن لا يستحقها فيُغلق على قلبه ويصرفه عنها، ومن صرف الله قلبه فلا يملك أحد أن يرده عليه.

- أن القبول محصور في فئة من الناس ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، يقول

فضـالة بن عبيد «لئن أعلم أن الله تقبل مني مثقال حبة أحب إلي من الدنيا وما فيها».

الحب في قاموس أهل القرآن لا يضاهيه أي حب، إنه حب يتصل بالملكوت الأعلى ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

- أن أكـبر نعمة أنعم الله بها على هذه الأمة أن أكمل لهم دينهم فلا يحتاجون إلى ديـن غـيره ولا إلى نبي غـير نبيهم، ولهذا جعله الله خـاتم الأنبياء، فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه ولا دين إلا ما شـرعه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.
- من شرف العلم أنه لا يُباح إلا صيد الكلب العالِم، فانظر حتى الكلاب تتمايز بالعلم ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾.
- أن الله يبتلي المؤمن بتيسـير المعصـية له وقربها منه حتى ما يحول بينه وبينها شـيء ﴿يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لَيَبْلُوَنَّكُـمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّـنَ الصَّيْدِ تَنَـالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
- وأخيرا تعلمنا سورة المائدة أن كل صادق سيفرح.. ستأتي تلك اللحظة التي هي لحظة التتويج الكبرى.. هي عرس الصـادقين.. هي الفرح بكل معانيه يوم أن يقال لهم ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾..

اللهم ارزقنا الصدق معك و مع كتابك و اجعلنا من الصادقين...

سورة الأنعام

نحـن أمام سـورة مهيبة عظيمـة، نزلت جملة واحدة على غير المعهود في السـور الطوال، شـيّع نزولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح... قال عنها عمر رضي الله عنه: أنها من نواجب القرآن.

والنواجب: هي العتاق المتقدمة النزول.

نزلت ليلاً، وهذا دليل على غاية البركة فهو وقت الأنس بنزول الرب إلى السـماء الدنيا...

هي أجمع سـور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية، تدل بشـكل واضـح ومفصل على سفاهات عقولهم، وأحوالهم، ومعتقداتهم الفاسدة من تحليل وتحريم وفق أهوائهم..

قال أبو إسحاق الإسفراييني: فيها كل قواعد التوحيد.

سـميت بسـورة الأنعام: لورود ذكر الأنعام فيها ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّـا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَـامِ نَصِيبًـا..﴾ ولأن أكثر أحكامها الموضـحة لجهالات المشـركين فيما كانوا يتقربون به من الأنعام لأوثانهم موجودة فيها.

السـورة تعتبر أصـل في محاجة المشـركين، وهي مليئة بالحجج، فالله سـبحانه وتعـالى يحتـج على ألوهيته، ويحتج علـى ربوبيته، وأنه الخالـق والرازق والمُحيي والمُميت... أيها الناس انظروا كيف خلقت؟ كيف رزقت؟ وكيف أنشأت؟

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِـقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْـحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

تأمل في ختام آياتها تجد هذه الألفاظ.. يفقهون، يعقلون، يتفكرون، فأنى يؤفكون، لأنها سورة تقيم الحجج.

أيضاً جاء فيها وصف القرآن بأنه ﴿بَصَائِرُ﴾: كله آيات ودلائل وبراهين واضحة وظاهرة، فمن أبصرها واستجاب فخيره لنفسه وبرّه لنفسه، وإيمانه لنفسه ومن عمي فعلى نفسه فالله لا ينتفع بإيمان المؤمنين ولا تضره معصية العاصين.

يقول الدكتور فريد الأنصاري معلقًا على قول الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾

هكذا واجب عليك أن تقرأ القرآن آيةً آيةً، اقرأ وتدبر ثم أبصر، عسى أن ترى ما لم تر و تدرك من حقائقه ما لم تدرك من قبل، فتكون له متدبرًا.

ذكر فيها محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه وقد كان عليه السلام إماماً في الاحتجاج والمجادلة عن دينه، وعن توحيد الألوهية وتقرير الناس به.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ من عُرض عليه الحق فرده ولم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه، فيحول الله بينه وبين الانتفاع بآياته، ويحول بينه وبين الإيمان ويتركه في إعراضه وحيرته تائهًا لا يهتدي إلى سبيل.

والإنسان الذي يعيش في حيرة كم تنزعج نفسه وتغتم؟ إنها العقوبة الدنيوية المعجلة.

وتأمل هذا الحرج وهذا الضيق كيف جاء وصفه في السورة ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾.

سأل عمر رضي الله عنه أعرابياً: ما الحرجة؟ قال: الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية لا وحشية ولا شيء..

فقال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه من الخير... نعوذ بالله من الخذلان..

قال ابن عباس رضي الله عنه: من أراد أن يعرف ضلال العرب فليقرأ الآيات من بعد الثلاثين والمائة من سورة الأنعام..

سورة الأعراف

من أطول السور المكية وهي تحكي قصة الصراع الطويل بين الحق والباطل ومتى بدأ هذا الصراع وكيف استمر..

سميت بالأعراف: لورود ذكر اسم الأعراف فيها وهو سور مضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلهما، روي ابن جرير عن حذيفة - رضي الله عنه - أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال: «هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار فوقفوا هناك على السور حتى يقضي الله فيهم».

السورة لفتت الأنظار إلى نعمة الله على الإنسانية جميعاً بأن خلقهم من أب واحد وهو آدم عليه السلام، وتكريم الله له بأمره للملائكة أن يسجدوا له.

حذرت من كيد الشيطان العدو المتربص الذي قعد لابن آدم بأطرقه، ليصد الناس عن الهُدى ويبعدهم عن ربهم..

تعرضت السورة للتفصيل في قصص الأنبياء ودعوتهم لأقوامهم والصراع الذي حصل بينهم، ثم ذكرت العاقبة والمآل الذي صاروا إليه في نهاية الصراع..

ومن المعلوم أن الله عز وجل لم يورد هذه القصص في القرآن لمجرد التسلية أو السرد التاريخي، وإنما هي دروس حية، تخاطبه وتصل لقلبه، وكأنها تتنزل عليه الآن، يجد فيها الموعظة والهداية والعبرة والشفاء والنور، ينصلح بها قلبه، ويزيد إيمانه، بل يجد فيها علاجاً وحلا لكثير من مشاكله، لأن فيها تربية وسنن، وسنن الله لا تتبدل ولا تتغير، وهذا هو المقصود الأكبر من القرآن تدبره وتفهمه، فالقرآن إذا وقع في القلب نفع.

سورة الأنفال

إنها السورة التي إذا قرأتها شعرت بروح جديدة تسري في جسدك..!

ومع كل قراءة تتجدد هذه الروح، إنها روح الإيمان الذي (يأرز إلى المدينة) ويجعلك وكأنك تمشي على أرضها !!

تلك الأرض التي مشى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، تسلك الأودية والفجاج والطرقات التي سلكها...

في هذه السورة أنت اقتربت من المدينة... اقتربت من بدر.. وقليب بدر.. والعريش الذي صنعوه الصحابة لرسول الله في غزوة بدر.. اقتربت من الحباب بن المنذر.. وعمير بن الحمام.. والمقداد بن الأسود وسواد بن غزية والعباس.. وأبي دجانة وعكاشة بن محصن رضي الله عنهم أجمعين..

اقتربت ودنوت حتى وكأنك تسمع كلمات سعد بن معاذ يتردد صداها في قلبك قبل سمعك: «يارسول الله، صِل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، سالم من شئت، وعادي من شئت، خذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت أحب إلينا مما تركت، يا رسول الله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.. سر بنا على بركة الله»

لا أعرف في أي قاموس من قواميس الحب تترجم هذه الكلمات..!

إنه ذلك الحب الفريد الذي لم ولن يأتي مثله أبداً.

الحب الذي جعلهم يعاهدون رسول الله «لا نقيل ولا نستقيل» وكأن لسان حالهم يقول:

وزنت الذي يبقى بالذي لا يبقى... فلا والله ما اتزنا.

الحب الذي عوض الله به رسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن هجره قومه وعشيرته وقرابته، فعوضه الله بقلوب أصحابه.. إنها سنة ماضية «من صبر على هجر قلوب كان أصلها أن تحبه فتح الله له قلوباً غيرها هي أحب له».

فيا قارئ سورة الأنفال قف وتأمل ولا تستعجل المرور دون أن ترتوي... ارتوي فالماء عذب والمعين صافٍ ونفسك ظمئى.

سورة الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وهي تتحدث عن غزوة بدر وما جاء فيها.. وأحداثها.. ونتائجها

غزوة تحمل في طياتها توحيد كبير.. احتفى الله بها وسماها يوم الفرقان، رفع الله فيها شأن المسلمين على قلتهم وضعفهم، نزل فيها جبريل عليه السلام على فرس شقراء معتجرا عمامة حمراء ومعه ألفاً من الملائكة..

غزوة قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتها وقد طرح نفسه على عتبة العبودية.. وها هو علي رضي الله عنه يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة غزوة بدر فيقول: لقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله يصلي تحت شجرة يبكي حتى أصبح!»

لقد كان يستجلب النصر من السماء...!

غزوة أظهر فيها الصحابة رضوان الله عليهم صدقهم في البيعة

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أأحدثك عن من فيهم؟؟ أأحدثك عن عمير بن الحمام حين ألقى التمرات؟ أو أحدثك عن حمزة وما أدراك ما الحمزة!

أم عـن ليث وأسـد ضـرغام لم يلتقط مبارزه أنفاسـه أمامـه إلا وكان قد أجهزَ عليه..

إنه عليٌّ بن أبي طالب - رضي الله عنه.

أأحدثك عن معاذ بن عمرو بن الجموح.. الشـاب الصـغير الذي انقطعت يده في المعركة وتدلت ولا يحملها إلا مجرد جلده، يقول: «فقاتلت بها عامة نهاري»..

يقاتل بيـد والأخرى متدلية يجرها..!! يقول «فلما آذتني عن القتال جعلتها تحت قدمي وقطعتها»..!

هم الرجال وعيبٌ أن يقال.. لمن على غير شاكلتهم رجالٌ

وأنت تتقلب في طيات غزوة بدر.. وبين أهلها.. ترى أنك أمام قوم قلوبهم ليسـت بين أضلعهم لا والله.. بل هي هناك تطوف حول العرش !!

جسمي معي غيرَ أن الروحَ عندكم....

غزوةٌ تعطيك ما هو طراز أهل بدر الذين نصـرهم الله وما هي صفاتهم.. لعلك ترتشف شيئاً من معينهم أو تتصف بشيء من صفاتهم.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم..... إن التشبه بالكرام فلاح

إنها سورة تحتاج إلى قلب محب فإياك أن تقرأها بدون قلب،،،

سورة التوبة

بالرغم من أن هذه السورة تصنف من السور القوية في موضوعاتها، ففيها براءة وتهديد وقتال وسيف، وعهود ومواثيق، وهتك وفضح للمنافقين وتعرية لمؤامراتهم ودسائسهم.. ومع ذلك فهي تحرك القلب كثيراً...!

بدءًا من اسمها (التوبة)..

والتوبة لفظ قريب للنفس محبب لها، له وقعه وجرسه وأثره.

وأكثر من يشعر بهذا المعنى هو ذلك التائب الذي كان ميتاً فأحياه الله بالتوبة، وكان غريقاً فأنقذه الله بالتوبة، وكان بعيداً فقربه الله بالتوبة...

فبدأ يتذوق طعمها، وألطافها، وأرزاقها، ومنحها، وعرف أن التوبة ماهي إلا توفيق وفتح من الله، ماهي إلا رزق من عند الله، ونور يقذفه الله في القلب..

ولولا أن الله أذن له بالتوبة وشرح صدره لها وحرك قلبه لها لما تاب..!

ولظل في غمرته وغفلته... فعلم عظيم نعمة الله عليه أن أيقظه من غفلة كان قد غرق فيها من سنين من عمره.

هذه السورة تحدثك عن غزوتين من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم (حنين) و(تبوك)..

وهذا يعني أنك ستقترب من رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرًا، ومن المعلوم أن كل من اقترب منه أنس به، ولن يشعر بهذا الأنس إلا محب صادق ..

كلما تنقل بين الآيات وجمع مع الآيات قراءة في السير وعرف أحداث الغزوة وما

دار فيها، سيشعر وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أصبح حيا في قلبه، وكأن روحه وفؤاده وسمعه وبصره قد امتلأ برسول الله، وأن بشاشة الإيمان قد خالطت دمه وقلبه وذاق طعم الإيمان..

ستقترب من صحابة رسول الله بل ستقترب من صحابة كثير منا لا يعرفهم ولم يسمع عنهم .. النعمان بن مقرن، ذو البجادين، علبة لن زياد، أبو عقيل الانصاري، أبو لبابة .. رضي الله عنهم أجمعين ..

أيضا في هذه السورة وفي كل السور التي تعرض الغزوات ستشعر أنك اقتربت من مدينة رسول الله وكأنك تستنشق عبق المدينة، وأريج المدينة، وطيب المدينة، وسكينة المدينة، وكأنك أحد ساكنيها ..
ستري في هذه السورة أمرا عجبا من جبر الله لقلوب عباده ..
سترى كيف جبر الله قلب (كعب بن مالك) وصاحبيه، وكيف جبر الله قلوب البكائين، وكيف جبر الله قلب أبي لبابة، وما زال الله يجبر قلوب عباده وهو الجبار الرحيم سبحانه وبحمده ..
فيها أعظم صفقة تمت على وجه الأرض..
لا يوجد صفقة أشرف ولا أجل منها، إنها بين الله وبين المؤمنين
﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾
البائع: هو أنت.

والمشتري: في هذا العقد لا ينكث العهد أبداً... إنه الله جل جلاله.

والسلعة: هي نفسك ومالك، وبدأ بالنفس لأنها الأنفس والأثمن والأغلى فليس بعد الجود بالنفس شيء.

والثمن: إنه الجنة.. وما أعظمه من ثمن.

يقول قتادة معلقاً على هذه الآية: ثامنهم الله فأغلى لهم الثمن.

هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾

توصل لك قانوناً مهماً تقوم كل الحياة عليه إنه (قانون المعاوضة)

إذا أردت أن تأخذ لابد أن تعطي.. وإذا أردت أن تربح فلا بد أن تدفع..

(الغنم بالغرم) إذا غنمت لربك لسوف تغنم...

ويامن عنده استعداد أن يغرم فدونك الصفات والأعمال والجسور التي توصلك...

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

إنها سورة التوبة، سورة تأخذك كلك، تأخذ بقلبك لتنقلك إلى عالم سماوي يختلف عن عالم الأرض...!

سورة يونس

ما هو الجو العام الذي نزلت فيه؟

غالب أقوال أهل التفسير أنها نزلت مابين السنة التاسعة إلى الحادية عشرة من البعثة، وهذه الفترة هي أصعب وأقسى الفترات التي مرَ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه.

حصلت فيها محنٌ متتالية، كمحنة الطائف وقذفه عليه الصلاة والسلام بالحجارة حتى أدمي، كان فيها عام الحزن، وقع فيه ذاك الحصار الظالم في شعب أبي طالب حتى أكل الناس أوراق الشجر من شدة الجوع والمسغَبة.

فقد فيه رسول الله زوجه خديجة - رضي الله عنها -، وعمه أبو طالب..

وقد كانا يُشكلان الملاذ والسند والحماية الداخلية والخارجية له.

ازداد فيه أذى قريش وصدهم وحربهم للدعوة، حتى تساءل المسلمون

هل من مخرج؟ هل من فرج؟

وسط هذه الأحزان، وهذا الضيق، وفي هذه الفترة العصيبة الحرجة نزلت سورة يونس، ومعها أخواتها (سورة هود، يوسف، إبراهيم، الحجر، الأنعام)

تحملُ في طيّاتها معالجةٌ إيمانية لهذه القلوب المكلومة لكي تتسلى وتتصبر..

وكأنها تقول: ما أنتم فيه لقيه الأنبياء والمؤمنون قبلكم فوطّنوا أنفسكم على الصبر، واعلموا أن هذه الحياة التي تعيشونها ماهي إلا فترة ابتلاء ﴿الَّذِي خَلَقَ

الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

والابتلاء سنة ماضية في العباد، وسنن الله لا تتبدّل ولا تتغير؛ ليَميز الله الخبيث من الطيب، وليُمحِّص الله الذين آمنوا، وليَتفاضل المؤمنون في درجاتهم ومنازلهم عند ربهم..!

اصبروا وإن تقاذفتكم أمواج البلاء، واعلموا أنكم تحت نظر الله تعالى، والله شاهد على ما تتعرضون له، وحتماً ستكون العاقبة لكم، فالعاقبة للمتقين.

سميت السورة باسم نبي، وفي القرآن ست سور سُمّيت بأسماء الأنبياء

وهي (محمد، نوح، إبراهيم، هود، يوسف، يونس).

تتميز السورة بجرس قوي، وتحدٍّ واضح بما ورد فيها من حجج وبراهين تدل على وحدانية الله و ربوبيته وألوهيته وأنه الحق، تكرر لفظ الحق فيها ثلاثاً وعشرين مرة.

توجه السورة أربع رسائل رئيسية

الرسالة الأولى: رسالة الثبات

لا تيأس، لا تضعف، لا تهتز، لا تستسلم حتى لو كنت مستضعفاً أو محاصراً، حتى وإن زاد الخناق والإغلاق عليك وعلى الذين معك حتى وإن صدوك وحاربوا دعوتك.

تأمل في نوح عليه السلام وثباته الطويل مع قومه، وموسى عليه السلام مع بني إسرائيل وهما القصتان التي عرضتهما السورة.

الرسالة الثانية: رسالة الحسم

مهما كان الضغط عليك شديداً فإياك أن تُفرط أو تتنازل أو تداهن أو ترضى بأنصاف الحلول فهذا دين الله لا تقبل عليه أي مساومة.

وهذه الرسالة يجدها القارئ واضحة قوية كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

الرسالة الثالثة: رسالة التحذير

تحذير من أمراض إن وجدت في الأمة أضعفتها

أولها: مرض الجهل بالله، فمن لا يعرف الله لن يستحمل الإيذاء والإستضعاف والإبتلاء فما الذي سيجعله يتحمل؟! لذلك كانت سورة يونس من أكثر السور التي تكلمت عن الله:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾

فمن عرف الله بأسمائه وصفاته قوي قلبه، وزاد يقينه، واشتدت بصيرته، ورأى ببصيرته ما لم يره بعينه، عندها لن تضره الفتنة ولن يضره البلاء، ولن ييأس أو يتزعزع بل سيخرج منها بقلبٍ سليم بدون عطب. لذلك قيل: (من عرف الله استراح)، هذه المعرفة كما يقول عنها أهل العلم (**طِبُّ القلوب**).

المرض الثاني: وهم الذين لا يرجون لقاء الله، وبيّنت أسباب هذا المرض:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾

الرضى بالدنيا، الاطمئنان لها، الركون لأسبابها، الغفلة، كلها أسباب أفقدتهم الشوق إلى لقاء الله، صرفتهم عن ترقُّب هذه اللذة، وأبعدتهم عن الطريق وقد قيل: على قدر الشوق هنا تكون اللذة هناك.

وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام «اللهم إني أسألك لذّة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك»

بينت لهم حقيقة الدنيا وأنها كمثل النبات الذي أزهر وأينع وتمتع بمنظره ومحصوله ثم لا يلبث أن يصفر ويبس ويزول وكأنه لا شيء.. وكأنه لم يكن..!

إنها الدنيا.. لا بقاء لها لو تفكر أهلها في حقيقتها، عرفوا أن الآخرة خيرٌ وأبقى.

الرسالة الرابعة: رسالة البشرى

وهي مأخوذة من قصة يونس عليه السلام ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾

حتى وإن كنتم الآن في مكة في الشعب، في الأذى، في الاستضعاف تأملوا كيف كشف الله العذاب عن قوم يونس لما آمنوا...! واطمئنوا سيكون الفرج.. سيكون المخرج.. أبشروا وأمِّلوا...

وليس بعد العسر إلا اليسر...

ومن آيات سورة يونس آية عظيمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾

إنه القرآن.. هو الموعظة والشفاء والهدى والرحمة، هو فضل الله الذي يُفرَحُ به..

هو الحبل الممدود الذي طرفه بيد القارئ وطرفه الآخر في السماء..!

هو وصية رسول الله لأمته «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»

أخرجه مسلم

هو الصاحب الذي يحب صاحبه والصاحب الذي لا يخذل صاحبه..

فإذا كان يوم القيامة يُقال لصاحب القرآن:

«اقرأ وارْقَ ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»

ما زاحم القرآن شيئاً إلا باركه، ولا رافق إنساناً إلا هذبه، ولا استقرّ في قلبٍ إلا أصلحه...

وكم من عالم في لحظاته الأخيرة وهو يُغادر الدنيا كان يقول:

«يا ليتني أُعطيتُ القرآن عمري كله»

من انقطع عن القرآن فَقَدَ جزءًا كبيرًا من جمال روحه..! فالقرآن فيه أسرار الجمال، ومن أين أتى جماله؟؟ إنه كلام الله، والله جميلٌ يحبُّ الجمال، جميلٌ في ذاته، جميلٌ في أسمائه وصفاته، جميلٌ في أفعاله، ولا يُحيطُ بجماله إلا هو سبحانه وبحمده، فكان كلامه جميلاً يُجمِّل القلوب والأرواح..

نسأل الله أن لا يحرمنا هذا الجمال وأن يملأ قلوبنا به.

سورة هود

سورةٌ وُصفت بثلاثة أوصاف لم ترد إلا فيها فقط...!

يقــول الله عــز وجل في آخر الســورة ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُــلِ مَا نُثَبِّتُ بِــهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وُصــفت بأنها: الحقُ، وموعظةٌ، وذكرى.

وقال عنها أهل التفسير: «إنها أشد سور القرآن وعظاً للقلوب».

الموضوع الرئيسي الذي تدور حوله سورة هود هو:

(تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم و من معه من المؤمنين)

ذكرنا سابقاً في سورة يونس الجو العام الذي نزلت فيه هذه السورة، فالعهد المكي بعمومه كان عهد ابتلاءات وامتحانات.. ابتلاءات حسية، وابتلاءات معنوية.

عهد حصــل فيه ما حصل من الكيد والمكر والاضطهاد والتعذيب فكانوا أحوج ما يكونوا للتثبيت.

ولولا تثبيت الله للقلوب لتهاوت وتساقطت وتقلّبت..!

فقلوبنا ليست بشيء إن لم يثبتها الله يقول صلى الله عليه وسلم: «إنما مثل القلب مَثَلُ ريشةٍ بالفلاة تعلقت في أصل شجرة، يقلبها الريح ظهرًا لِبَطن»

جاء التثبيت في سورة هود من خلال وسيلتين:

الوسيلة الأولى: (التذكير بحقائق ثابتة لن تتغير)

أولهـا: بـأن الحياة الدنيا هي دار ابتلاء وامتحان، هـي حياةٌ مبنيةٌ على اختلاط الخير والشرّ، الراحة والألم، اللذة والتنغيص.
حياةٌ مبنيةٌ على أعاصـير وعواصـف البلاء فلا تتصـور أنها ستصفو أو تستقيم لأحد، فإن طلبت حياةً لا امتحان فيها فقد تطلّبَت حياةً غير موجودة.

ثانيها: أن غاية ما كُلفت به التبليغ، أما هداية القلوب فهذا أمر لا تملكه أنت، إنما هو بيد الله عز وجل فلا يضـيق صدرك بأنهم لا يستجيبون لك ولا تذهب نفسك عليهم حسرات..!

ثالثها: اعلم يقيناً أن العاقبـة للمتقين، فمهما انتفش الباطل وارتفع ومهما طغى الظالم وتجبّر، ومهما كان حجم الأذى والكرب فالعاقبة للتقوى.

وسيلة التثبيت الثانية التي وردت في سورة هود هي:

(التثبيت من خلال قصص الأنبياء)

ورد فيها سـبعُ قصـص للأنبياء وهم نوح، هود، صـالح، إبراهيم، لوط، شُعيب، موسى عليهم السلام جميعًا.

كلها أتت لتقول للنبي صـلى الله عليه وسـلم ما تجده من البلاء قد وجده الأنبياء مـن قبلك، حتـى ما أصـابك في حياتك الأسـرية في أهلك وزوجك فقد أصـاب الأنبياء مثله.

فهذا نوحٌ ابتلي بابنه، ولوط بزوجته، وإبراهيم بولده، وهود بعشيرته..
لست وحدك في طريق البلاء..!
فوطّن نفسك على الصبر، ولا تجعل ما يمر بك من ضيق وغمّ وحزن يُضعفك أو يقطع عليك الطريق الذي اختاره الله لك.

فمهما كان حجم العقبات والمحن والبلاءات، اثبت واصبر وبلِّغ دين ربك..
وكأن هذا التثبيت الذي ورد في ثنايا هذه القصص صورة من صُور اللطف الموجود في القرآن حين يصل القرآن إلى داخلك، إلى عُمقك، إلى جرحك، إلى وجعك وأنينك الذي لا يسمعه ولا يشعر به إلا أنت فيُخفف عليك ويُهوِّن مُصابك ويمسح وجعك وينتشلك من أحزانك.﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ...﴾
إنه شفاءٌ لكل ما يمرّ بك، شفاءٌ لكل ما يدور في هذه الصدور، شفاءٌ لكل أمراضك الحسية والمعنوية.

والقرآن كله رحمة: آياته رحمة، ومعانيه رحمة، مجالسه رحمة، ومواعظه رحمة وتأمل أيها القارئ المتدبر في منهج الأنبياء في دعوة أقوامهم من خلال سورة هود ستجد أن جانب الرحمة كان ظاهرًا جدًا فيهم، وهذه من أهم صفات الداعي المبلِّغ لدين الله، أن يكون مملوءاً بالرحمة، رحمة حقيقية يراها الناس في أفعاله وأقواله وتصرفاته.
ظهرت الرحمة في خطاب الأنبياء لأقوامهم، فقد تكرر منهم يا قومي يا قومي

وهذا النداء فيه تودُّدٌ ولطف، له تأثيره في النفوس ومعناه أنتم أهلي، وعشيرتي، أنا منكم، وأنتم مني..

ظهرت الرحمة أيضًا في صدقهم في نصح أقوامهم وبذل الجهد في إقناعهم ومحاورتهم وعرض الأدلة والشواهد والبيانات والحجج عليهم، وعدم اليأس منهم مهما بلغوا في صدهم وتكذيبهم وعنادهم ومحاربتهم.

ظهرت الرحمة في فتحهم لأبواب التوبة والاستغفار لهم وقد تكرر على ألسنتهم واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ظهرت الرحمة في تعريفهم أقوامهم بالله وتحبيب الله إلى عباده..!

وتأمل أيها المتدبر نبرة الحب العالية وهم يعرِّفون الناس بالله.. وقد قيل: إن المحبُ إذا تكلم لا تخطى الأُذن نبرة كلامه أبداً..

إن ربي لغفورٌ رحيم.. إن ربي رحيمٌ ودود.. إن ربي قريبٌ مجيب.. إن ربي على كل شيء حفيظ.. إن ربي على صراطٍ مستقيم...

الرحمة، المغفرة، القرب، الود، الحفظ، الإجابة، العدل، كل هذه الصفات تفتح القلوب للهداية بتحبيب الله إلى عبده.

(اسم الرب) وكم في هذا الاسم من أسرار؟

إنه من أقرب الأسماء إلى العبد، يُشعر الإنسان أنه في حفظ الله ورعايته وعنايته، يُشعره بأن الله يحوطه وينصره ويحميه ويربيه..

من تأمل هذه المعاني عرف أن أساس منهج الأنبياء أن يُعظَّم الله في قلوب الناس.. وأن يُعبِّدوا الناس لله.. وأن يدلوا العباد على الله.. لذلك جاء الأمر باتباع هديهم ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾

خُتمت السورة بأمر عظيم ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وكم نحتاج إليه وخاصة الآن ونحن في زمن التقلبات والمتغيرات الإجتماعية والأخلاقية والتقنية.

الاستقامة هي الثبات، هي المداومة على حال واحدة، أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب..! دخل رجل على حذيفة - رضي الله عنه - وقال:أوصني، فقال: إياك والتّلون فإن دين الله واحد.

ثم تعطيك الآيات منهجًا متكاملًا لهذه الاستقامة:

١ - ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾: كُن على منهج الكتاب والسنة واحذر من سواهما وتحصَّن بالعلم فهو الذي يُنير بصيرتك في زمن الفتن والمتغيرات.

٢ - ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾: الزم التوبة كما تلزم التوحيد، من أول عمرك إلى آخره، إن عملتَ معصيةً فتُب.. وإن أصاب قلبك ظُلمة فتُب، إن تغير عليك شيءٌ فتُب، إن كُنت في هم وغمّ فتُب، إن انتهيت من موسم طاعة وعبادة فتُب.. التوبة لا تختص بالمعاصي فقط، إنها وظيفة العمر وهي العبادة التي لا تنقطع.

٣ - ﴿مَعَكَ﴾: اختر الصحبة التي ترافقك... فالعقول تلقح العقول والإيمان يُقوي ويثبت ويزيد مع الصحبة الصالحة.

٤ - ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾: احذر الطغيان فهو من أخطر الأمراض التي تمنع عنك

الاستقامة، طغيان المال، طغيان النفس، طغيان الجاه والمنصب والشرف، طغيان العقل والفكر.

٥ - ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: احذر الظُلم والظالمين لا تكن معهم ولا تكن مُعينا لهم، وإياك إياك والركون إليهم فإن عقوبة الركون أن الله سيكلك إليهم فيُسلطهم عليك ويتخلى عنك.

٦ - ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾: صلاتك، صلاتك فهي رأس مالك، تُنقي، تُصفِّي، تُكفِّر، تُعين، وكلما حققت إقامتها نالك الحظ الأكبر من الاستقامة.

٧ - ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾: الكَيّس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو به السيئات ويغسل بها ذنوبه، ولا تحقرن من المعروف شيئًا، فالذرة في موازين أهل الدنيا قد لا تُؤثر و لا تُحرك الميزان ولكنها عند الله ذاتُ أثر، كثرة الأعمال والطاعات تقوي القلب، فالقلوب تقوى وتصِحّ بأعمال أصحابها، كما أنها تمرض وتضعف بأعمال أصحابها.

٨ - ﴿وَاصْبِرْ﴾: الصبر زاد الاستقامة وغذاؤها ودليل استدامتها.. كن صابراً، اصبر على أقدار الله وارضَ بها، وأري الله من نفسك خيرًا ولا تغالب الله في أقداره.

اصبر على طاعة الله وتصبر عليها فمن رحمة الله بعباده أنه أعانهم على مجاهدة أنفسهم، وما من عمل تصبر وتُصابر فيه إلا ويُعينك الله عليه وييسره لك وينزع عنك مؤونته.

اصبر عن المعاصي، اصبر عن مداخل الشيطان التي كَثُرت ووساوس النفس

التي تسلطت، صابرها حتى يجعل الله لك فرجًا ومخرجًا.

اصبر على مخالطة الناس ومعاملتهم واجعل بين عينيك وأنت تُعاملهم قول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

٩. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: الصبر يوصلك إلى الإحسان والإحسان أعلى مقامات الدين، لا يكاد يصل إليه إلا القلّة والندرة من الناس..!

وهو أن تحقق العبودية لله ظاهرًا وباطنًا، وتجمع بين الإسلام والإيمان وتجمع بين الإحسان في القلب «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، والإحسان للخلق وكما تكون للناس يكون الله لك فما عند الله يُشترى بالإحسان إلى خلقه.

١٠. ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة للإصلاح ومحاربة الفساد من أهم أسباب الاستقامة والثبات.

ثبتنا الله وإياكم على صراطه المستقيم وسَلَك بنا طريق المتقين.

سورة يوسف

سـورةٌ مميزةٌ فريدة، أسـلوبها قصصـي مشـوِّق، تختلف عن بقية سورة القرآن بأنها عرضـت قصة نبي الله يوسـف عليه السلام كاملة من بدايتها إلى نهايتها، جمعت الأحداث من طفولته إلى أن أتم الله عليه نعمة التمكين في الأرض.

تحمـل في طياتهـا الكثير من التربية والفوائد والعبر قال الله عنها: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾

بدأت برؤيا وانتهت بتأويلها، بدأت بألم وانتهت بفرج وفرح.

فيها سلوى لكل محزون، فكأنها سورة الصبر على أقدار الله وانتظار الفرج منه، قال ابن عطاء: «لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح».

الحزن فيها كثير بدءًا من اسمها (يوسف) المأخوذ من الأسف والحزن، وجاء الحزن فيها أيضًا على لسان يعقوب عليه السلام وهو يقول: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ..﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ...﴾

وجاء الحزن في أحداثها:

ففيها فقدٌ.... والفقد كله ألم وحزن، وفيها تفريقٌ بين والدٌ وولده، فيها بكاءٌ وبث وشكوى، فيها كظمٌ وتصبُّر، فيها استرقاقٌ وبيع، وغربةٌ وسجن، ومجاعةٌ وضيق.

قصةٌ حافلةٌ بالأحداث والابتلاءات فلا عجب ولا غرور بأن تكون أحسن القصص كما قال الله في بدايتها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ..﴾.

بدأت القصة بذكر الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام وقصها على والده فعرف

يعقوب عليه السلام أنها رؤيا مبشرة تدل على مكانةٍ ورفعةٍ ستعطى لهذا الصبي، فأمره أن يكتمها ولا يبثها حتى لا ينزغ الشيطان بينه وبين إخوته.

ثم حكت لنا المحنة الأولى:

حسد إخوته له، حسدًا أعمى بصيرتهم وقلوبهم فكادوا له وتآمروا عليه وألقوه في البئر، وفرقوا بينه وبين والده فكانت هذه المحنة الاولى ليوسف عليه السلام. قابل يعقوب هذا الابتلاء بصبر جميل واستعانة بالله ومشى مع البلاء كيفما مشى به، كلما أدارهُ استدار معه، وصدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين قال: «مثل المؤمن كمثل الخامَّة من الزرع من حيث أتتها الريح كفأتها».

ثم جاءت المحنة الثانية:

محنة الاسترقاق، غلامٌ كريم من سلالة آباء كِرام، وأنبياء عِظام، يُباع في مصر بأرخص الأثمان وكأنه عبدٌ مملوك..!!

ثم جاءت المحنة الثالثة:

محنة المراودة والإغراء وكيد النساء.. وقلَّ من يصمد أمام هذه الفتنة وينجو منها، فالمرأة لا تُقاوم إلا بالله كما جاء في الحديث «ما رأيت أذهل للب الرجل الحازم منكن». ولكن يوسف عليه السلام رفض واستعصم بربه وقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ ولا يفعل هذا إلا محب مخلصٌ لله، والمحب صبور، يتحمل من أجل ربه ما لا تتحمله الجبال الراسيات.

لم يواجه الفتنة أو يستشرفها، فمن استشرف الفتن استشرفته، الإنسان ضعيف، والقلوب تتقلب، والفتن خطافة، والثبات عزيز.
ولكنه فرّ منها، (ومن فرَّ من الفتن سلّمه الله منها).

قال ابن الجوزي: قرأتُ سورة يوسف عليه السلام فتعجبت من مدحه على صبره، ورفع قدره بترك ما ترك، فتأملت خبأة الأمر فإذا هي مخالفة الهوى.
فقلت: واعجبًا لو وافق هواه من كان يكون؟!
ولما قد خالفه صار أمرًا عظيمًا يضرب المثل بصبره، ويُفتخر على الخلق باجتهاده، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة، وصدق من قال: (العز والشجاعة صبر ساعة).

ثم جاءت المحنة الرابعة:

محنة السجن والظلم، ظلم فوق الظلم، ظلم البشر للبشر ما أصعبه وأقساه.
وفي أثنائها عرضت لنا القصة إحسان يوسف عليه السلام لصاحبي السجن وإحسانه للملك ولأهل مصر بالرغم من ظلمهم له بأن عبّر رؤاهم، وأرشدهم كيف يواجهون المجاعة الشديدة التي ستمر ببلادهم، وكان ناصحًا أمينًا لهم.
وهكذا هم الأخيار وصفوة الخلق لا تتغير صفاتهم حتى لو تغيرت أحوالهم..!
فالمحسن يظل محسنًا حتى لو ظُلم، والعزيز يظل عزيزًا حتى لو قُهر، والكريم يظل كريمًا حتى لو افتقر..!
ثم عرضت لنا السورة خروجه من السجن، وتوليه خزائن مصر، وكيف وُضع له التمكين في الأرض فأصبح يوسف عليه السلام عزيز مصر.

وهـا هـو الفرج قد اقترب من ذاك الأب المكلوم بفقد ابنه، والذي ابيضـت عيناه من الحزن فهو كظيم، يردد حزنه في جوفه ويحبسـه في داخله ولم يقل إلا خيرًا، فقط أطلقها زفرة حرّى، ونفثة مكبوتة من صدره وقال: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ....﴾.

جعل الأسـف وكأنه رجلٌ يناديه!! صبر يعقوب عليه السلام وكلما ازداد بلاؤه زاد صـبره، وزاد حسن ظنه بربه ومن تصـبّر صبره الله ولن يكون الصبر جميلًا إلا إذا أعان صاحبه على تجاوز البلاء.

لم ييأس يعقوب عليه السلام برغم مصابه وقال لبنيه:

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ...﴾.

جاء إخوة يوسـف لمصـر، نفدت بضـاعتهم، وأموالهم، أصـابهم الجهد والجوع وقالوا:

﴿أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ...﴾.

عندها كشـف لهم يوسـف عن شخصـيته، شـعروا بالندم، اعترفـوا بخطئهم، واعترفوا أمامه بأن الله قد آثره وفضله عليهم.

اكتفى يوسـف بهذا الاعتراف، أغلق الماضي بكل ملفاته وبكل ما فيه، لم يعنفهم، ولم يعاتبهم:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

سـموٌ وعفو لا يقدر عليه إلا الكبار..! أصـحاب النفوس الشريفة هم الذين فهموا مـا معنى ﴿فَمَـنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ...﴾ فدخلـوا على ربهم من باب العفو والصفح.

عـاد الإخـوة لأرض فلسـطين وجـاء البشـير ليعقوب عليـه السـلام، ألقى عليه القميص، شم يعقوب رائحة يوسف فارتد بصيرًا..!

وعاد إليه بصـره جعل الله القميص الذي كان في السـابق سـببًا في حزن يعقوب عليه السـلام هو بذاته اليوم السبب في الرحمة، والسبب في الشفاء ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وكم سترتاح قلوب البشر لو أيقنت بهذه الحقيقة، وهي أن الله غالب على أمره.

جمـع يعقوب أهله وأبناؤه وخرج من أرض فلسـطين لمصـر، وخرج يوسـف عليه السلام ومعه أهل مصر في موكبٍ حافلٍ لاستقبال أبيه.

إلتقيـا.. رأى الأب ابنـه، ارتمـى الابن بين يدي أبيـه، جُبِرت القلـوب، وكُفْكِفَت الدموع، وهدأ الأنين، وجمع الله الشمل بعد الفراق..!

أتم الله النعمة على يوسـف عليه السـلام، فجاء الشـكر، وتضـاءل يوسف أمام نفسه، واعترف أن هذا هو محض فضل الله عليه، ولطف الله به، وبره وإحسانه..

فأخـذ يقـول: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِـنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَـنِي مِن تَأْوِيـلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

إنها النعمة التي تكسر العبد وتجري الشكر على لسانه وجوارحه.

العـبرة بالخواتيم.. ليسـت العبرة بنقصـ البداية وإنما العـبرة بكمال النهاية، فبعد الضيق جاء الفرج، وبعد العسر جاء اليسروبعد البكاء جاء الفرح.

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

سورة الرعد

سورةٌ تعلمنا اليقين.. واليقين بابٌ يفتحه الله على قلب من يشاء من عباده فيذوق به حلاوة الإيمان، وتصبُّ السعادة في قلبه.

عبادةٌ قلبية عظيمة، واليقين من أعلى درجات الإيمان، قال عنه صلى الله عليه وسلم: «من شهد أن لا إله إلا الله موقنًا بها من قلبه دخل الجنّة»

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «الصبر شطر الإيمان واليقين الإيمان كُله».

ما علاقة سورة الرعد باليقين؟

سورة الرعد تعرض لنا الكثير من الشواهد والآيات الكونية آياتٌ في السماء، آياتٌ في الأرض، آيات في النبات والأشجار والجبال والرياح والبروق والصواعق، والأمطار، آياتٌ في الأنفس والخَلْق..

عرضت كثير من المتناقضات وقيل أنها جمعت اثنتين وثلاثين ظاهرة متناقضة، أو ما يُسمى بالمتقابلات والمقصود بها: أن الله يخلُق الأمر ونقيضه ويجعلهم جميعًا في قبضته ولا يقدر على هذا إلا الله..! «الليل والنهار» «وما تغيض الأرحام وما تزداد» «خوفًا وطمعًا»

«طوعًا وكرهًا» «نفعًا وضرًا» «الحق والباطل» «الظلمات والنور» «الأعمى والبصير» «يبسُط ويقدر» «الرحمة والعذاب» «السحاب وما يحمله من مطر وصواعق»

وكل هذا من تمام قدرته وعظمته وقوته جلّ جلاله.

هذا الكمّ الهائل من الشـواهد الكونية والعجائب التي لا حصر لها وهذه الهيمنة الكاملـة المحكمـة على الكون، وهذا التفصـيل الدقيق لهذه الآيـات الذي ورد في السورة ما السرّ من ورائه؟

الجـواب تجده في قوله تعـالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَـاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾

الاطلاع على هذه القدرة وبهذا التفصيل هو الذي يوقع اليقين في قلوبكم.

اليقين بماذا؟

اليقين بأن هذا الكون كله مدبّر مُسير محكومٌ بنظام لا يمكن أن يحصل فيه شيء إلا بإرادة الله وعلمه وإذنه ومشيئته.

اليقين بأنك أيها الإنسـان ما أنـت إلا مجرد نقطة في هذا الطابور الكوني الهائل الطويـل الذي فيه سـماوات ومجرات وأراضـي وجبال، وكواكـب وبحار، فالدنيا سـائرة بك وبغيرك، فكُن علـى يقين أن الرب العظيم الذي دبّـر أمر هذا الكون بهذه القدرة وبهذا الإحكام لن يُعجزه أن يُدبر أمرك.

فأمـرك أهـون مـن أمر الكـون..! فثِـق واطمئن واركـن إلى ربك، ولا تكـن قلقًا مضطربًا هلِعًا تحمل قلبًا كالريشة تتقلب في حيرةٍ وشك.

اليقين بالقضـاء والقدر وأن كل ما أجراهُ اللهُ عليك هو مكتوب سـلفًا، هو أمرٌ قد فُرغ منه.

قلقك، حُزنك، انهيارك، تحسـرك، بكاؤك، عُزلتك، جدلك، اعتراضك لن يُغيّر حرفًا واحدًا من المكتوب.

فما كان لك سيأتيك على ضعفك، ومالم يكُن لك لن تحصل عليه ولو توفرت لديك كل أسبابه..!

اليقين بالمُلك والحكمة: بأن ربك الذي خلقك هو يملكك، له حق التصرف فيك، فليس لك أن تعترض على ربك أو تستدرك عليه، واعلم أن كل ما أصابك لم يكن هكذا عبثًا أو ظلمًا إنما لحِكمة.

كل أفعال الله في هذا الكون مبنية على الحِكمة، إذا أمرض أو شفى لِحكمة، إذا أضلّ أو هدى لِحكمة، إذا أعطى أو منع أو قدّم أو أخر لحكمة، فلله الحكمة البالغة.

كُن على يقين بأن الله لا يختار لعباده إلا الأنفع والأصلح.

فكُن صاحب يقين يقويك، وكُن صاحب رضًا يُرضّيك، وكلما رضِيتَ قلّبَ لك الأحوال.

وكلما فاتك أمرٌ من أمور الدنيا أو فقدته عامل الله باليقين، بأن الله سيعوضك خيرًا منه في الدنيا والآخرة كان ابن مسعود – رضي الله عنه – يُقسم بأنه ما ظن أحدٌ بالله ظنًا إلا أعطاه الله ما ظنه فيه.

فمن كانت صفقته مع الله فلن يخسر، ومن سلّم رقبته لله تكفّل به.

ومن آيات سورة الرعد آية عظيمة عرضت لنا سُنة من سنن الله الربانية إنها سنة التغيير:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾

سنة تقول لك بمُنتهى الوضوح لن يتغيّر حالك إلا إذا غيرت نفسك.

وهي تشمل الخير والشر سواء التغيير للشرّ أو التغيير للخير.

فما كان الله ليُكرمك بنعمة ثم يسلبك إيّاها إلا بسبب منك أنت، بدّلت فبدل الله لك، وغيرت فغيّر الله عليك.

وفي المقابل إذا بدأتَ بما يُحب أتمَّ لك ما تُحب.

من سعى للتغيير وفِّق له.. فمن سعى للخير والهداية وُفِّق لها، ومن سعى للتوبة وفِّق لها.

خُذ أمرك بالعزيمة وابدأ، فعليك البداية وعليه التمام.

عرضت السورة أيضًا مثلين أحدهما مائي والآخر ناري

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾

كلا المثلين مضروبان في الحق والباطل، في الصراع بين الحق والباطل، المواجهة بين الحق والباطل وانتصار الحق في نهاية الطريق.

نعم قد ينتفش الباطل ويكبر ويعظُم ويظهر فوق الحق في بعض الأحيان، وترى كأن الباطل انتصر!!

ولكن لا يلبث أن يزول.. يضمحل.. ويتلاشى لا قيمة له.

ثم عرضت السورة صفات المؤمنين أهل الحق المستجيبون لربهم أولو الألباب:

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو

الْأَلْبَابِ(١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾

قال ابن السعدي – رحمه الله –: «فحقيقٌ بمن نصح نفسه وكان لها عنده قيمة أن يجاهدها لعلها تأخذ من أوصاف أولي الألباب بنصيب، فتحظى بهذه الدار التي هي مُنيةُ النفوس وسر الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح، فلمثلها فليعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون... «انتهى كلامه رحمه الله.

جعلنا الله منهم.....

سورة إبراهيم

سُميت باسم نبي، إبراهيم - عليه السلام - تخليدًا لمآثره فهو أب الأنبياء، وإمام الحنفاء، وحامل راية التوحيد، حياته كلها كانت من أجل التوحيد.

مناظرته مع والده ومع قومه عباد الأصنام والكواكب ومع الملك (النمرود) الذي ادّعى الربوبية كانت كلها من أجل التوحيد.

حتى دعوته التي ذُكرت في السورة بعد انتهائه من بناء البيت العتيق كلها دعوة إلى الإيمان والتوحيد.

تناولت السورة أيضًا «العقيدة» في أصولها الكبيرة: الإيمان بالله، الإيمان بالرسالة، الإيمان بالرسل، الإيمان بالبعث والجزاء وكأن السورة أحيطت بسياج التوحيد كإحاطة السوار بالمعصم.

تكلمت السورة عن الهدف من إنزال هذا الكتاب العظيم وانه هدايةٌ للناس لإخراجهم من ضروب الشرك والجهل والضلال والمعاصي إلى نور العلم والهداية والإيمان.

﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾

قال الشيخ السعدي - رحمه الله -:

وفي ذكر «العزيز الحميد» بعد ذكر الصراط الموصل إليه، إشارةٌ إلى أن من سلكه فهو عزيز بعز الله، قويٌ لو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة.

الآيـات في سـورة إبراهيم تقرر أن الهدايـةُ توفيقٌ من الله، وأن الله – سـبحانه وبحمده – أعلم بخلقه، أعلم بمن يسـتحق الهداية فيوفقه لها وبمن لا يسـتحقها فيصـرفه عنها ومن ختم الله على قلبه فلا تملك أنت هدايته: ﴿وَمَا أَرْسَـلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

وإن مـن أعظـم وأنفع الدعاء الـذي يدعو به العبـد ربه هو «طلـب الهداية» وفي الحديـث القدسـي يقـول الله عز وجـل: «يا عبـادي كلكم ضـال إلا مـن هديته فاستهدوني أهدكم».

ولو استحضر الإنسان هذا المعنى لما اغترّ بما عنده من الهداية ولما ظنّ أن الهداية إذا دخلـت قلبه لم تخرج منه، فكم من أناس ضـلّوا بعـد الهداية، وكم من أناس زاغوا بعد الاستقامة نسأل الله السلامة والعافية.

لذا أيها العبد، لا تتكل على صـلاحك وإن كنت صـالحًا، ولا تتكل على استقامتك وإن كنت مستقيمًا، كُن على حذر وخوف، واسأل ربك الهداية والثبات دائمًا.

أشـارت السـورة أيضًا أن المؤمن في سـيره إلى الله يتقلّب في أيام الله، والمقصود بأيام الله أيامُ نعمه، وأيام نِقَمه، ولهذا فهو يحتاج إلى صبر وشكر﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

ثم انتقلت السـورة إلى عرض شـيء من مشـاهد يوم القيامة وما فيه من أهوال تُزلزل القلوب والأقدام ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾

﴿وَاسْـتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّـارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْـقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ

﴿(١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾

وكأنها تريد أن تُرحّل القلوب للآخرة، وأن تقوم الآخرة في القلوب، حتى لا يتيه الإنسان في أودية الدنيا، وحتى لا يمتدّ أمله ويظل يدور في سواقي الدنيا مشدودًا لها، يجري خلفها، وماهي في النهاية إلا متاع الغرور وستنتهي وكأنها حُلم!!

تذكّر الآخرة نعمة، ومن رحمه الله أن يذكّرنا بالآخرة حتى نستعد لها.

ثم جاء المثل العظيم:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾

شبه الله شجرة الإيمان في قلب المؤمن مثل النخلة في علوّها وارتفاعها وقوتها ورسوخها، في كثرة ثمارها ونفعها فهي شجرة كثيرة البركة كثيرة الخير والنفع.

قال البغوي: والحكمة من تمثيل الإيمان بالشجرة، هي أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرقٌ راسخ، وأصلٌ قائم، وفرعٌ عال.

وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق القلب، وقول اللسان وعمل الأبدان.

﴿مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾

ومثل كلمة الشرك الخبيثة مثل شجرة خبيثة، وهي شجرة الحنظل التي اقتُلعت من أصلها، وليس لها ثبات على الأرض، فلا عروق ولا جذور، ولا ارتفاع لها في السماء.

تموت وتذروها الرياح... وكلمة الكفر مآلها الفناء ولا يصعد لصاحبها إلى الله عمل طيب.

ثم جاءت دعوات إبراهيم - عليه السلام – وقد أثبت القرآن لهذا النبي خمسًا وعشرين دعوة، فبينه وبين الدعاء صلةٌ وثيقةٌ جدًا، بينه وبين الدعاء ديمومة واستمرارية لا تنقطع، وكثرة الدعاء من أعظم دلائل التوحيد.

لأنه يعلم أن أمره وحاجته بيد الله، ولا يقضيها إلا الله.

عنده يقين بقدرة الله وكفاية الله فيدعو في كل حين وفي كل وقت.

تميزت دعواته بكثرة ثنائه وتمجيده لربه، وتميزت بإظهار الإخبات والتذلل بين يديه وتميزت بعنايته بأمر ذريّته وكثرة الدعاء لهم، وبحبه للخير وانتشاره وحبه للدعوة.

نماذج من دعواته التي وردت في السورة:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

تركهم في العراء في وادٍ غير ذي زرع للعبادة وطاعة الرحمن وكرر النداء (ربنا) رغبة في الإجابة و إظهارًا للتذلل والالتجاء.

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾

دعا لهم بثمرات القلوب قبل ثمرات الحقول..

قال السـدّي: خُذ بقلـوب الناس إليهـم، فإنه حيث يهوى القلب يذهب الجسـد، فلذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه مُعلقٌ بحب الكعبة.

﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

اسـتجاب الله دعاءه فجعل مكة حرمًا آمنًا يُجبى إليها ثمرات كل شـيء رزقًا من عند الله.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾

يا رب اجعلنا ممن حافظ على الصلاة واجعل ذريّتي من يقيمها أيضًا..

وهـذه خير دعوة يدعوها المؤمن لأولاده فلا أحب له من أن يكون مقيمًا للصـلاة هو وذريّته.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾

بهذه الدعوة ختم إبراهيم عليه السـلام دعاءه الضـارع الخاشـع بالاستغفار له ولوالديه ولجميع المؤمنين يوم يقوم الحساب.

سورة الحجر

الجو العام الذي نزلت فيه السورة..

نزلت في النصف الأول من العهد المكي، قيل في السنة الرابعة من البعثة، في وقت اشتدت فيه مكابرة كفار مكة وأبنائهم وتصلّب وتفاقم موقفهم العنادي الكفري في تكذيبهم للقرآن، وتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن جهدهم في هذه الفترة منصبًا على التعذيب والأذى الجسدي بقدر ما كان منصبًا على إثارة الشُبَه والجدل والاستهزاء وطلب المعجزات..!

وكلها صُور من مكر أهل الباطل على أهل الحق حتى يُحاصروهم ويُغلقوا عليهم ويمنعوهم من إيصال الحق للناس.

دخلوا في مواجهتهم الصريحة بشتم رسول الله واتهامه إذ قالوا له:

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ الاستهزاء به علنًا في المحافل والمجامع العامة بُغية استثارة غضبه فربما قابل شتائمهم بمثلها، أو لإدخال الحزن على قلبه فيُقعده الحزن عن استكمال طريقه.

مطالبتهم له - عليه الصلاة والسلام - بأن يأتيهم بالملائكة حتى يُصدقوه في نبوته، فإن لم يأتيهم فهو كاذبٌ من الكاذبين.

استهزائهم بما بلّغهم إياه من القرآن وقوله أنه ذكرٌ للعالمين حتى آخر وجود الناس على الأرض، وأن هذا لا يمكن أن يكون فلا بد أن يُنسى ويُهمل بعد وفاة محمد وانتهاء حياته.

إصـرارهم على العنـاد والمكابرة بأنه حتى لو أجـرى الله لهم آية خارقة تجعلهم يعرجون في السماء ويُشاهدون من آيات الله ما يُشاهدون سيزعمون عندها بأنهم قومٌ مسحورون قد أثَّر فيهم سحر رسول الله إمعانًا في عنادهم ومكابرتهم.

هذا هو الجو العام الذي نزلت فيه سورة الحجر... لذلك تميزت هذه السورة أن فيها نوعًا من الإخافة والتحذير والنِّذارة لكل من بلغته رسالة رسول الله ولم يستجب لها. فكان محور السورة يدور حول إبراز مصير الكافرين المخوف، وما الذي ينتظرهم من العقوبة والهلاك..!

سـميت بالحجـر إشـارة إلى قوم ثمـود وهم نموذج لهـؤلاء المكذبـين من الأمم السـابقة لتكذيبهـم نبيهم صـالح - عليه السـلام - والحجر: هو اسـم وادٍ بين المدينة والشـام كانوا يسكنونه، وسُمّي هذا المكان بهذا الاسم لأنهم كانوا ينحتون بيوتهم من الجبال الحجرية.

وتأمـل ما في هذا اللفظ من دلالة تُعطيك رابطًا بين اسـم السـورة ومقصـودها فالسورة تدور حول: عناد المكذبين ومنهم قوم ثمود (أصحاب الحجر) والحجر: مأخوذ من الحجارة، والحجارة فيها قسـوة وصلابة وغِلظة، فكذلك هم حجروا أنفسهم وعقولهم وكأنهم أغلقوا عليها بجُدُر عزلتهم ومنعتهم عن قَبول الحق.

كانـوا في قمـة القوة والعظمة والحضـارة والتمكين في الأرض ولكن، كل هذا لم يغنِ عنهم من عذاب الله شـيئًا! فقد جاءتهم العقوبة بطريقة عجيبة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ صـيحة فقط!! صـوتًا قويًا مفزعًـا مروِّعًا قطّع نياط قلوبهم فأماتهم ولم يُبقِ منهم أحد..! استأصلهم لم يفلت منهم أحد لا صغيرًا ولا كبيرًا

وكأنهم شـيئًا لم يكن...! وصـدق الله: ﴿وَكَذَٰلِـكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَـذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾

ثم انتقلت السورة إلى إقامة الحجج والبراهين على هؤلاء المشركين

١. بعرض دلائل القدرة في الكون المفتوح أمامهم بكل ما فيه.

٢. بإخبارهم بقصـة خلق الإنسـان وما تحمله من دلاله على ضعفه وأنه مخلوق ليوضـع في هذه الدنيا موضـع الامتحان ثم يكون الحساب وفصل القضاء في يوم الدين، فعلامَ يُعاند ويكابر؟

٣. بذكـر الأمم السـابقة، أصـحاب الأيكـة، قـوم لـوط، وقـوم ثمـود وما كان مصـيرهم... فتأملـوا يـا أهل مكـة مـاذا كان عندكم ممـا كان عند الأمم السـابقة من القوة والتمكين؟ لا شـيء يُذكر..! فهل تظنُّون أن الله سيدعكم وأنتم على هذا التكذيب والعناد؟؟!

خُتمت السـورة بوصـايا ربانية نفيسـة للنبي صـلى الله عليه وسـلم وهو في هذا الخضـم الحافل من الصـدود والتكذيب والسـخرية والإعراض، وصايا له ولكل من حمل لواء الدعوة إلى الله.

(الوصية الأولى):

أن يصـفح الصـفح الجميـل، وأن يُعرض عـن مقابلة من يؤذيه بمثـل أذيته وألا يشغل القلب برغبات الانتقام أو بدفع أذاهم عنه.

(الوصية الثانية):

أن لا يمد عينيه إلى ما متع الله به أصنافًا من المشركين من متاع الحياة الدنيا لاختبارهم وامتحانهم بها..فمن مدّ عينيه ونظر نظر المشّتَهي والطلب اعترض على حكمة الله في عطائه ومنعه وتوسعته وتضييقه على عباده.

(الوصية الثالثة):

أن لا يحزن على الذين اختاروا لأنفسهم الكفر، لا يحزن على هؤلاء المعاندين المكابرين الكافرين حتى لا يؤثر الحزن عليه، فالحزن يُشغل الحزين عن دعوته التي تتطلب منه الرجاء والتفاؤل.

(الوصية الرابعة):

أن يخفض جناحه للمؤمنين تأنيسًا لهم وتواضعًا ورحمةً بهم ومؤلفًا لِقُلوبهم، كما يُخفض الطائر جناحيه ليُحيط بفراخه الصغار ويضمها إلى دفء صدره ويجللها بريشه حبًّا ورحمة وحنانًا وعناية.

(الوصية الخامسة)

أن يصدع بما يُؤمر أن يبلِّغه للناس بدون توانٍ ولا تقصير ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾

وبعد هذه الوصية

امـتن الله عـزّ وجلّ على نبيـه ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْـتَهْزِئِينَ﴾ وعظماء المسـتهزئين بالرسـول صـلى الله عليه وسـلم هم خمسـةُ نفر، كانوا ذوي أسـنانٍ وشرفٍ في قومهم وهم:

الأسـود بن أبي زَمعة، الأسـود بن عبد يغوث، الوليد بن المغيرة، العاص بن وائل، الحارث بن الطلاطلة.

(الوصية السادسة):

أن يُسبِّح بحمد ربه ويكون من الساجدين.

(الوصية السابعة):

أن يُتابع عبادته لربه حتى آخر لحظة من عمره.

وكأن السورة تُختم لنا بالوصية العبادة...

فكلما ضاق صدرك فعليك بالذكر والعبادة فإنك ستقوَى..

فمن انشغل بالله أعانه الله....

سورة النحل

سورة تستعرض لك النعم وتضعك في مواجهة مع نفسك..!

أَفيحسن بك أن يتودد الله إليك بكل هذه النِعم ثم تتبغَّض إليه بالشرك والجحود والنكران والمعاصي؟

إنها السورة التي تهاجر بك من أرض الغفلة إلى أرض التّذكّر.

سورة تطوف بقلبك في فلك النِعم، ابتدأت بنعمة الوحي ثم ما خلقه الله في هذا الكون الفسيح.. السماوات، الأرض، البحار، الجبال، السهول، الوديان، الماء الهاطل، النبات النامي، النجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل، الأنعام بكلِّ ما خُلقت لأجله دفء ومنافع وأكل وجمال وزينة وركوب ونقل، وانتفاع من أصوافها وأوبارها وأشعارها.

البحر وما فيه من لحم طريّ وحُليّ وسفن ومراكب تشق عبابه وتجري فيه مقبلة ومدبرة إحداهما تُقبل والأخرى تُدبر تجريان بريح واحدة!

الطير مسخرات في جو السماء مُذللات مُهيَّئات للطيران في الهواء بما ألهمها الله من قبض أجنحتها وبسطها ما يُمسكهن في الهواء عن السقوط إلا الله.

ذاك المخلوق الضعيف دقيق الحجم الذي أودع الله فيه من الحِكم والنفع والتدابير الشيء العجيب «النحل» فأخرج من بطونها عسلاً لذيذًا مختلف ألوانه بحسب اختلاف أرضها ومراعيها فيه شفاءٌ للناس.

الأزواج، الذرية، الملابس، المساكن، الحواس، العافية، تصور لو أن الأرض كلها

ملكك، وأنت أغنى أغنياء العالم ولكنك قمت مشلولاً قد سُلبت أطرافك منك، ماذا تُغني عنك الدنيا بما فيها؟ لا شيء....!

كل هذه نِعم تعرضها لك السورة، بل ولن تستطيع حصر نِعم الله عليك مهما حاولت فهي نِعمٌ بعدد الأنفاس واللحظات، مما يعرفه العباد ومما لا يعرفونه كان الحسن البصري - رحمه الله - يردد في ليلة: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

فقيل له في ذلك.. فقال:

«إن فيها لَمُعتبرًا ما نرفع طرفًا ولا نردُّه إلا وقع على نعمة وما لا نعلمه من نعم الله أكبر».

وبعد ذكر النِّعم جاء التوحيد:

بعد أن ذكر الله ما خلقه من المخلوقات العظيمة وما أنعم به من النِّعم العميمة ذكَّر عباده أنه لا يشبهه أحد ولا كُفء له، ولا ندّ له فقال:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾

حتى الأمثال التي ضُربت في سورة النحل هي دلالة على التوحيد:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ

يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦)﴾

ثم تأمل أيها القارئ هذه الحشرة التي تسمت السورة بها «النحل»

يعتبر مجتمعًا من أنشـط المجتمعات، معروف بطاعتـه الكبيرة لأميره وقائده، لا يعرف اليأس، ينتقل في اليوم الواحد بين عشرة آلاف زهرة..!

وتأمل أيضًا الأفعال في السورة «اتخذي - كُلي - اسلكي»

فـالأولى بـك يا مؤمـن أن تكون عامـلاً منقادًا تـدور في فلك التوحيـد والانقياد والتسليم حتى يُخرج الله منك الخير للعباد كما أخرج الشهد من النحل، فالعسل لا تُنتجه النيام..!

ما هو حقّ هذه النعم؟

حقها أن تُشكر، والشُكر من أقوى دلائل التوحيد وأركان الشكر ثلاثة:

أن يكون بالقلب اعترافًا وشهودا، وباللسان حمدًا وثناء، وبالجوارح طاعة وانقيادًا، ولن تكون شاكرًا إلا إذا امتلكت قلبًا حساسًا تجاه النعم صغيرها وكبيرها.

لك الحمد يا ربي على كل نعمة ومن جملة الإنعام قولي لكَ الحمدُ

ولا حمدَ إلا منك تُعطيه نعمةً تعاليتَ أن يقوى على شكرها العبد

واعلم أن الشـكر سـببٌ لبقاء النعم وتقييدها بل وزيادتها فالشكر يعقبه المزيد،

والمزيد منه سبحانه لا نهاية له وتأمل في المثال الذي في السورة على الشكر، إنه إبراهيم عليه السلام وما أنعم الله به عليه جزاء شُكره: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾.

وأما الجحود فعاقبته سلب النِّعم: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

فكما ألبسك الله النعمة وأغدق عليك بها حتى أحاطت بك من كل جانب، ثم نسيت فضل الله عليك وكفرت بها جردك الله منها وألبسك لباسًا آخر مضاد لها، فالجحود عقوبته الحرمان.

خُتمت سورة النحل بقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾.

نزلت في شهداء أحد حين رأى المسلمون ما فعل المشركون في قتلاهم من تبقير بطونهم والتمثيل بهم، فقالوا: لئن أظهرنا الله عليهم لنُمثِّلن بهم مُثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد..!

ووقف النبي صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة وقد جدعوا أنفه وأذنه، وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه!

فنظر إلى شيءٍ لم ينظر قط إلى شيء أوجع منه إلى قلبه، بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام وأخذ يتوعد بالانتقام لعمه ويقول:

«أما والله لئن أظفرني الله تعالى بهم لأمثّلن بسبعين منهم مكانك»

فنـزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَـا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾

آيات تحمل في طيّاتها معنى تربويًا كبيرًا.. إنه العدل والإنصاف في حال الغضب والبغض وهذه أعلى مراتب العدل، أن يعدل الإنسان في حال البُغض والسُخط والتضجر والألم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ...﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ....﴾

وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام: «وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا»

ومـن يوفـق لهذا العدل قليل..! وقد قالها ابن رجـب – رحمه الله –: «هذا عزيز جدًا»

لذلك ارتبط العدل بالتقوى، فلن يعدل وقت الغضب والخصومات والنزاع إلا من كان تقيًا وألجم نفسه بالتقوى.

ومن كانت التقوى حاضرةً في قلبه لم تغيب عنه، ولم تنفلت منه إنها تربية القرآن التي تعجز كتب التربية البشرية جمعاء أن تأتي بمثلها وصدق الله:

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...﴾

ثم انظر إلى الثمرة الكبيرة لهذه التقوى ولهذا العدل:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾

معيةٌ خاصة.. قربٌ خاص..

ومن كان الله معه ثبته وسدّده وتولاه ونصره ووفقه ورُزق الحكمة في سائر شأنه.

من كان الله معه دبّر أمره وجبره وكفاه كل شيء.

وتأمـل عذوبة الآيات وجمالها واترك لقلبـك أن يتذوقها بدون مزاحمة من كلام البشر..

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾

اللهم اجعلنا منهم واسلك بنا طريقهم..

سورة الإسراء

أخرج الإمام البخاري بسنده عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأُول وهنّ تِلادي»

ومعنى العتاق الأول: النفائس القديمة التي تعتبر من الكنوز.

وتِلادي: أي أنهن من أول ما تعلّم من القرآن وممّا له قيمة عظيمة عنده.

وعن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول: ما يريد أن يُفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر وكل هذا تنبيه ودلالة على شرف هذه السورة...

سميت بسورة الإسراء لورود قصة إسراء النبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى فيها..

وسميت أيضًا بسورة (بني إسرائيل)؛ بالرغم من أن الكلام عن بني إسرائيل في القرآن كثير؛ إلا أن هذه السورة أشارت إلى حقيقة كبرى وحَدَثٍ جوهريٍّ فاصل في تاريخ بني إسرائيل؛ لذلك سميت السورة باسم هذه الأمة التي كانت هي الأمة المختارة في فترة من الزمان:

﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

الأمة التي كان فيها العلم، والنبوة، والإمامة، وكان فيها الملك، والكتب والتفضيل:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

لكن هذا التفضيل لم يستمر..!!

إنها سنن الله، وسنن الله لا تُحابي ولا تُجامل أحدًا..!

فمن فرّط اسْتُبدل ومن أفسد اسْتُبدل، وبنو إسرائيل أفسدوا في الأرض إفسادًا كبيرًا واستمر فسادهم جيلاً بعد جيل.

وسنة التمكين إنما هي مرتبطة بالطاعة وإقامة أوامر الله وشريعته وبنو إسرائيل خالفوا، وعصوا، وفرّطوا، وأفسدوا فسلبهم الله التمكين والتفضيل، وسلبهم القيادة والإمامة:

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾

ويجد القارئ لسورة الإسراء تأكيدًا على هذه السنة: «سنة الاستبدال والتغيير» كما في قصة إبليس الذي كان مع الملائكة، مع المقربين لكنه خالف وعصى ورفض السجود لآدم - عليه السلام - فسلب الله منه هذا الفضل:

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾

وكما في قول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾

لقد مننَّا عليك يا محمد بالتثبيت على الحق، وعصمناك من الميل إليهم فلقد أوشكت أن تميل إليهم فتوافقهم على ما اقترحوه عليك لقوة خداعهم وشدة احتيالهم، ولو مِلتَ إليهم لأصبناك بعذاب مضاعف في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم لا تجد نصيرًا يناصرك ويدفع عنك العذاب.

ثم بدأ الاستبدال وظهر هذا واضحًا في حادثة الإسراء التي افتُتحت فيها السورة..

اجتمع الأنبياء كلهم، آدم وإبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى ويوسف ويعقوب وبقية الأنبياء..

اجتماعٌ كله شرف، احتفاءٌ عظيم ؛ لم يحصل إلا في هذا الموطن فقط..

ولِمَ كل هذا الحشد الكريم المهيب..؟؟؟

ليتقدمهم محمد صلى الله عليه وسلم إمامًا يُصلّون خلفه..

استلمت الراية التي فرّط فيها بنو إسرائيل، وحصلت سنة الاستبدال.

ثم جاءت السورة بمجموعة كبيرة من الأوامر والحكم والوصايا :

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾

أوامـر عُرضـت بلهجة حاسـمة قوية وكأنها أشـبه مـا تكون بالمواثيـق والقوانين والقواعـد لهـذه الأمـة الجديدة المُسـتخلفة، تصـنع قادتها، وتصـنع أفرادها ؛ ليتمكنوا في هذا الاستخلاف.

فأهم صفات الأمة القائدة المُستخلفة، صفة القوة:

القوة في الأخذ بهذا الدين وتطبيق أوامره والثبات عليه.

القـوة في مواجهـة الباطـل وأهلـه، وقد عرضـت لنا السـورة نماذج لهـذه المواجهة كما في قصـة موسـى مع فرعون، حين وقف موسـى - عليه السـلام - وقال لهذا الطاغية وهو على كرسـيّ مُلكه وبين حاشيته: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾

القـوة في مواجهـة المُكذبين بالبعث: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)﴾

القوة في مواجهة المُجادلين المُشككين: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

القـوة في مواجهـة المشركين: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾

القوة في العبادة وطلب المنازل العالية في الآخرة:

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾

القوة في نصرة هذا الدين وحمله وتبليغه، فهو دينٌ لا يحمله إلا الأقوياء وأولوا العزم من الناس، لا يخدمه أولئك الضعفاء المترددين المُحبطين المُتثاقلين.

ثم قررت السورة أن ثمة عقوبات دنيوية وأخروية تنتظر أولئك المُخالفين لهذه الأوامر والمواثيق:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾

ومما تميزت به سورة الإسراء أيضًا أنها سورة مملوءة بالتسبيح، وسميت أيضًا بسورة «سبحان»، فقد افتتحت بالتسبيح وختمت بمشهد العلماء الخاشعين المتدبرين المسبحين:

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨)﴾

بل إنها اشتملت على تسبيح عجيب كبير: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

السموات تسبح، الأرض تسبح، ومن في السموات والأرض من المخلوقات يسبحون الله، وكل شيء يسبح بحمده.

والتسبيح تنزيهٌ وتعظيم، ومن خصائص هذه الأمة المُستخلفة أن تكون معظمة لله، ولا يحصل التعظيم إلا بمعرفة الله ؛ ولن تعرف الله إلا من كلامه.

فأعظم من يتكلم عن الله هو الله ؛ لذلك كان سورة الإسراء من أكثر السور التي ذكر فيها الثناء على القرآن.

تكرر فيها لفظ القرآن أحد عشر مرة، لأنه مصدر التعظيم، ومصدر التشريع، ومصدر الأوامر والنواهي يقول الله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾

فلا تعظيم إلا بمعرفة، ولا معرفة إلا في القرآن..

ونختم سورتنا بما ختمها الله به: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

سورة الكهف

السـورة الثانية التي وصفها ابن مسـعود رضي الله عنه أنها من العِتاق الأُول: أي النفائس القديمة التي تعتبر من الكنوز.

ورد في فضلها: قول النبي صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين» رواه البيهقي في السنن الكبرى حسنه الألباني وقوله صلى الله عليه وسلم (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال) مسند الإمام أحمد ١٩٦/٥

و السّرُ – والله أعلم – في اختيارها دون غيرها من السور لتطرق أسماعنا وقلوبنا في كل أسـبوع أنها تُشّـكلُ كهفًا وملجأ وعصـمةً من الفـتن، و تُعطي القارئ خط النجاة من الفتن وكيف يكون الخروج منها.

عرضت السورة أربعة قصص جمعت أصول الفتن:

قصة أصحاب الكهف وهي تشير إلى فتنة الدين.

تعرض قصـة الفتية الذين آمنوا و اجتمعت كلمتهم علـى رفض ما كان عليه قومهم من الكفر والشرك فأنكروا عليهم ودعوهم إلى التوحيد، رُفع أمرهم إلى الملك الظالم الذي هددهم وتوعدهم بالقتل والرجم إن لم يتركوا هذا الدين ويرجعوا إلى دين آباءهم.

اعتصم الفتية بربهم وفرّوا إليه، فربط الله على قلوبهم ومن ربط الله على قلبه ثبته و طمأنه ولولا تثبيت الله لتساقطت القلوب وتهاوت وزاغتْ.

هؤلاء الفتية فروا بدينهم وهذا هو المشروع وقت الفتن الفرار منها وليس التصدر لها أو استشرافها فمن استشرف الفتن استشرفته و من فرّ سلّمه الله منها.
لجأوا إلى الله ومن لجأ إلى الله آواه، فالله يجير من استجار به وفي الحديث «عزَّ جارك» من كان في جوارك يا رب فهو عزيز، لا يؤذيه أحد ولا يصل إليه أحد فهو في حفظك و أمانك و ضمانك وحراستك، وأنت سبحانك لا تُضيّع عبادك.

سخر الله لهم من الأسباب ما لا يخطر على بال أحد:

آواهم إلى كهف ليس بعيدًا عن قريتهم، ومع ذلك عَمَّى الأبصار عنهم.
ثلاثمائة سنة لم يصل إليهم أحد وهم في كهفهم نائمون.
ضرب الله على آذانهم وليس على أعينهم، فالنوم الطويل الثقيل لا يكون إلا إذا تعطلت جارحة الأذن.
ناموا وأعينهم مفتوحة، فمن رآهم يظنهم أيقاظاً وهم رقود.
ألقى الله عليهم المهابة والرعب حتى لا يقربهم آدميٌ ولا سبع من السباع ولا شيء.
كانت أجسادهم تُقلب ذات اليمين وذات الشمال حتى لا تتقرح أجسادهم وتذوب جلودهم.
سخر الشمس لهم فكانت تميل عن كهفهم بوضع معين حال طلوعها وغروبها حتى لا يتأذون منها
ثلاثمائة سنة لم يتغير فيهم شيء، لم يؤذيهم شيء، ولم يتجرأ عليهم مخلوق من

المخلوقات لا إنس ولا جن ولا دواب ولا سباع ولا حشرات ولا هواء ولا ريح، إنهم في حفظ الله ومن كان في حفظ الله فهو المحفوظ وإذا حفظك الله فأنت في خير وإلى خير وقد حزت الخير كله.

لن تنجو من فتنة الدين إلا بالثبات، و الثبات له طريقان:

الطريق الأول: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾

لن تثبت بدون القرآن، فهو النور الذي ينير لك الطريق في ظلمات الفتن، فاعتصم واستمسك به.

الطريق الثاني: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ..﴾

إنها الصحبة الصالحة التي تقويك، وتعينك وتشد من عزمك وتثبتك على طريق الإيمان.

قصة صاحب الجنتين وهي تشير إلى فتنة الدنيا والمال:

رجلٌ آتاه الله من كل شيء، وبسط له في الرزق فهو يتقلب في النعيم

اغترّ بالدنيا وزينتها، ركن إليها، أصابه البطر و العجبُ و الغرور، تصّور أن هذا النعيم لا يمكن أن ينتهي أو يزول من بين يديه، بل طُمست بصيرته و انقلبت الموازين عنده وظنّ أن حظوظ الآخرة مبنية على حظوظ الدنيا!!

انغمس في فتنة الدنيا، ناصحهُ صاحبه فلم يستجب له، نزلت عليه العقوبة ﴿وَأُحِيطَ

بِثَمَرِهِ﴾ أصبحت جنته ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أرضًا خاويةً جرداء لا شجر فيها ولا ثمر،ذهب كل شيء، فَقَدَ كل شيء،فأخذ يقلب كفيه نادمًا متحسراً...

لـن تنجو من فتنة الدنيـا إلا إذا عرفت حقيقتها ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَـلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ...﴾

الدنيا حُلوةٌ خضرة، قصيرةٌ زائلة خدّاعةٌ تخدعك كلما فتحتَ على نفسك أبوابها فتنتك أكثر، فلا تُنافس عليها ولا تتعلق بها، ولا تُسرع فيها، خفف وطأتك فيها و اعلم أن من أفرط في حب شيءٍ فلن يشبع منه.

ولو كان لا بن آدم و اديان من مال لا بتغى ثالثًا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب..

قصة موسى و الخضر وهي تشيرُ إلى فتنة العلم:

وذلك أن موسـى عليه السلام قام خطيبًا في بني إسرائيل ذات يوم فخطب فيهم خطبة بليغة مؤثرة ذرفت منها دموعهم وخشـعت قلوبهم فقام أحدهم وسـأل: يا موسى هل على وجه الأرض أحدٌ أعلم منك.

فقال موسى: لا، فعتب الله على موسى عليه السلام أنه لم يرد العلم إليه فأوحى إلى نبيه (أن هناك عبدًا صـالحًا عنده من العلم ما ليس عندك) فقال موسـى: فكيف لي به يا رب، فأوحى الله إليه: أنك ستجده عند مجمع البحرين.

فأخذ موسـى على نفسـه العهد أن يظل مسافرًا لا ينقطع عن السفر مهما لحقته المشقة حتى يصل إلى هذا العبد الصالح ويتعلم ماعنده من العلم.

دارت أحداث القصـة بين موسى والخضر و اشترط فيها الخضر على موسى أنه

لا يسـأله عن شـيء يفعله، ما استطاع موسى عليه السـلام أن يصبر، تكرر منه السؤال ثلاث مرات، فقال الخضر في الثالثة: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾

العلم يحتاج إلى صبر، لن تتجاوز فتنة العلم وكثرة الاختبارت فيه إلا بالصبر

الصـبر على طول الطريق، الصـبر على مشقة العلم وحفظه ومذاكرته وتكراره، الصـبر على أخلاق المعلم، الصبر على مداراة الأقران الذين سيسلكون الطريق معك، الصبر على العوائق و الصوارف و الشواغل التي تعيقك عن العلم

فمن صبر ظفر..

ومن صبر أفلح..

ومن صبر وصل..

قصة ذو القرنين وهي تشير إلى فتنة المُلك والجاه:

ذو القرنين ملك مُكَّن له ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾

جعل الله له مُلكاً قويًا لايطمع أحد في إزاحته أو التغلّب عليه، لم يأته التمكين من عند البشر بل هو ممكّنٌ له من عند الله، وتمكين الله فوق كل تمكين.

﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ هيأ الله له جميع الأسباب التي يكون بها ثبات ملكه، من عقول وجيوش و أموال وقوة وأسلحه.

دانت له الأرض و البلاد و المشارق و المغارب، قام بثلاث رحلات:

رحلة في غرب الأرض، ورحلة في مشـرقها، ورحلة شـمالية بنى فيها سدًا عظيمًا صلبًا قويًا من النحاس والحديد، لا أحد يستطيع أن يتسلقه أو يثقبه.

أمـام هـذا المُلك والجاه العظيـم وهذه الفتوحـات والرحلات وهـذه الإمكانيات والطاقـات الهائلة التي أُعطيت له لم يغتّر، لم يتكبر، لم تتعاظم نفسـه، لم يظلم ولم يُفسـد، بل تضـاءلت نفسه أمامه و ألجم نفسـه بلجام التقوى، كان متواضعًا شاكرًا رادًا النعمة إلى منعمها الحقيقي فقال ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾..

لـن تتجاوز فتنة المُلك والجاه والمنصـب إلا إذا حققت العـدل، ولن تحقق العدل إلا إذا تضـاءلت أمام نفسـك، وعلمت أنه لولا توفيق الله لك وتيسـيره للأسباب وسوقها إليك ونفعك بها، لما تمَّ لك من أمركَ شيء.

كن شـاكرًا لنعمة الله عليك، واسـتعملها في طاعته وكن سـبب خيرٍ ونفعٍ لكل من ولّاك الله أمرهم وتذكر (أن حقًا على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه).

سورة مريم

سورة هادئة، أشبه ما تكون بواحة إيمانية وارفة الظلال..
تكرر اسم الرحمن في ثناياها ستة عشر مرة، فهي سورةٌ تفيض بالرحمة، يعاين القارئ رحمة الله في آياتها وقصصها ومشاهدها.

سميت بسورة مريم لورود قصتها فيها وفي ذلك تكريم وتخليدٌ لذكراها، فهي ممن بلغت درجة الكمال الإنساني كما في الحديث «كَمَلَ مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

انقسمت السورة إلى قسمين:

القسم الأول:

عباد الله المؤمنين وفيوضات الرحمة التي تتنزل عليهم

القسم الثاني:

من ابتعدوا عن الرحمن وكيف حرموا من الرحمات

طافت بنا السورة في بيت نبي كريم هو زكريا عليه السلام الذي كبر سنّه ووهُن

عظمه، و انتشـر الشيب في شـعره وبلغ من الكِبر عتيا، وهو السن الذي تيبس فيه المفاصل و العظام.

انقطع لربه، والعبدُ إذا انقطع للّه تكفّل اللّه به.

نادى ربه نداءً خفياً، فيه خضوعٌ واستعطاف..

فيه استرحامٌ و استجداء..

نداءٌ فيه وُدّ..

واللّه يسمع الصوت الخفي، فإذا قال العبد: يا رب، قال الرب: لبيك.

فإذا تعلمت أن تقول يا رب بأدبٍ وخضوع فإن اللّه سيغيثك.

كان زكريا عليه السلام في قمة العجز في الأسباب ولكنه ما التفت لها وإنما تعلق قلبه بمسببها.. عَظُم يقينه بربه، والكفاية تأتي على قدر اليقين.. واستوهب ربه، واللّه يُعطي هبةً من عنده ولو فُقدت الأسباب.

وبعد اليقين والدعاء والنداء جاءت الرحمة، جاءت الإجابة، جاءت البشرى

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾

فـإذا أراد اللّه أن يرحمك لا يسـتطيع أحدٌ أن يحجب عنـك هذه الرحمة أو يغلق عليك بابها.

فـلا تيأس ولا تمل لا تتزعزع ولا تُسـيء الظن بربك ولا تسـتبطئ الإجابة فمهما طال البلاء و اشتد العسر فإن الفرج سيأتي ورحمة اللّه تسع العباد..

ثم تذكر وأنت تنتظر الفرج بأن العظيم إذا امتنّ امتنّ بعظيم..

ثم انتقلت السـورة لقصـة مـريم التي صـاحبتها رحمة اللّه في حملهـا وولادتها وتفاصيل حياتها.

فتاةٌ عذراء في الثالثة عشر من عمرها اعتزلت أهلها وقومها لتتفرغ لعبادة ربها، فجأة تجد أمامها شابًا وسيمًا جميلًا وهي بمفردها، فزعت وخشيت أن يكون إنما أرادها بسوء، تعوذت بالله منه فأفصح لها عن نفسه

﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾

تعجبت وتساءلت كيف يأتيني الولد ولستُ بذات زوج ولست بزانية؟؟!

تمنت الموت و أن تنتهي حياتها ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾

لم تعلم أن من رحمة الله بها أنها تحمل في بطنها (نبي) سيكون من أولي العزم من الرسل فكم من مِحن تحملُ في طياتها منح..!

أنطق الله هذا المولود الذي ولدته للتوّ ليثبت قلبها ويسلّي حزنها ويدافع عنها ويعلن عن نبوته.

إننا أمام نموذج من رحمة الله حين يفتحها لعبده فيجد في ثناياها الفرج والفرح والرِّي والاسترواح، ويفهم أن الله وحده هو الذي يملك الرحمة وليس البشر، وأن الله لا يُكاثر في رحمته، ولايُكاثر في إحسانه، ولا يُكاثر في عطائه، وأن رحمات الله لا تتوقف.

ثم انتقلت الآيات إلى قصة إبراهيم عليه السلام، والذي ظهرت رحمة الله به بأن هداه من صغره ونفّره من عبادة الأوثان و بالرغم أن والده هو صانع التماثيل وبائعها!!

فالله إذا أراد أن يرحم عبده دلّهُ عليه.

ثم عرضت الآيات حوارًا دار بينه وبين والده يظهر فيه رحمة إبراهيم عليه

السلام بوالده وحرصه على هدايته، و إنَّ من أعظم البر أن يجعلك الله سببًا في هداية والديك.

ثم تأمل كيف عرضت لنا السورة صورًا و صورًا من فيوضات الرحمة:

عطايا الله للمؤمنين:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾

حب الله للمؤمنين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾

لطف الله بالمؤمن:

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً﴾

فرح الله بالمؤمن:

﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾

فتح باب التوبة للعصاة:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾

نجاة المؤمن:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾

احتفـاء اللّه بالمؤمنين حين يقدمـون عليه وفودًا فيتُحفـون بالجوائز و المكرمات فقد قدموا على أكرم الأكرمين، فهم في ضيافته.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾

إنها سورةٌ تفيض بالرحمة لكنها تحتاج قلبًا يتلمسها ويفتش عن مواضعها وينظر في أسبابها ليعرف كيف تُنال لعله أن ينالها.

اللهم بلغنا برحمتك فوق ما نرجو ونؤمل،وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

سورة طه

سورةٌ لها ظلٌ خاص يغمرها من مطلعها إلى ختامها..

لها جرسٌ رخيٌ، نديٌ، شجي.. يخيّم عليها جو السكون والخشوع والهدوء والقُرب... هذا المعنى يجده القارئ في مناداة الله لموسى عليه السلام عند جبل الطور في هدأة الليل، وسكون الليل، والصمت مخيّم، وموسى وحيداً..

ثم يسمع: ﴿يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢)﴾ يجده في المناجاة الطويلة بين موسى وربه، ليطمئن قلب موسى ويزداد أنسًا بربه..

يجده في قول الله لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾، ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾..

يجده في بعض مواقف يوم القيامة التي عرضتها السورة ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ إنه ظل خاص تفردت به هذه السورة..

الموضوع الرئيسي الذي تدور حوله سورة طه هو عناية الله بأوليائه وعلى رأسهم الأنبياء والرسل عليهم السلام، وكل من سار على هديهم وحمل الراية لتبليغ دين الله للناس.

كيف يصنعهم الله على عينه، وكيف يلطف بهم، كيف يكرمهم ويرفق بهم، كيف يحفظهم ويكلأهم وينصرهم وينجيهم وينتقم ممن يعاديهم فتكون العاقبة لهم وكل هذا من عناية الله بهم.

وإذا العنايةُ لاحظتك عيونها نُم فالمخاوف كلُهن أمانُ..!

فمـا كان الله ليدعـك تعلّم الناس دينه وتحملهم إليه، وتُصـلح، وتُرشـد، وتزرع الأمل في نفوسـهم وتثبتهم وتصـبرهم، وتذكرهم بفـرج الله، وتتحمل ما تتحمل من الأذى ثم يتخلى عنك..!

الله لا يتخلّى عن أوليائه ولا يضيعهم،

ثق بأنه ليست هناك احتماليةُ خسارة في سوقِ الله من يُسيّر أمرها....

اُفتتحت السـورة بملاطفة النبي صـلى الله عليه وسـلم.. وذلك أنه لما نزل عليه القـرآن صـلّى هو وأصـحابه فأطال القيـام، فقالت قريش: ما نـزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى..! فجاء الرد من رب محمد عليه الصلاة والسلام تطييباً لقلبه، وتسـليةً لفؤاده، ونفياً لكل أنواع الشقاء عنه.. ﴿طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾

وتأكيداً أن إنزال القرآن عليه إنما هو رحمة وسعادة ونورٌ ودليلٌ له ولكل من اتبعه إلى الجنة.

ثم عرضـت السـورة قصة موسى عليه السلام بشـيء من البسط والتفصيل من ولادتـه، وخروجه مهاجرا إلى أرض مدين وفراره من بطش فرعون، ثم المواجهة بينه وبين فرعون، وبينه وبين السـحرة.. ثم نصر الله له وخروجه ببني إسرائيل وهلاك فرعون وغرقه..

فجاءت القصـة لتثبت رسـول الله صـلى الله عليه وسلم لشـبه حال قوم موسى بكفار قريش و ليتأسى به في الصبر على تحمل أعباء الرسالة..

وتسلية بأن العاقبة ستكون له، وأن الله ناصره على أعدائه، وممكنٌ له في الأرض كما نصر موسى عليه السلام...

عرضت السورة صورًا من عناية الله لنبيه بموسى عليه السلام، أوحى الله إلى أم موسى أن تقذفه في صندوق وتلقيه في البحر!!
وهذا بلا شك مظنة موته ولكنه بأمر الله يصبح عين نجاته!
فالإنسان يصبح في قمة الأمان إذا كان محاطاً بعناية الله..

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي...﴾ أحبه الله وحببه إلى خلقه، فما رآه أحد إلا أحبه..

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ الصناعة هي (التربية)، الله يربي كل عباده لكن الأمر هنا مختلف ومختلفٌ جدًا..! هنا.. إنسان يُصنع صُنعاً على عين الله، يربيه تربيةً خاصة، وما ينتقل من مرحلة إلى مرحلة في حياته إلا وعين الله تكلؤه..
هو يتربى على نظر الله، وفي كفالته.. وحمايته.. وعنايته..
لو قُدر لإنسان لحظة من هذه العناية الخاصة فهذه كرامة، فكيف بمن يتقلب فيها ويُصنع صنعاً على عين الله..!
إنه فضل الله يؤتيه من يشاء،،

﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ امتنع الرضيع عن ثدي المرضعات، حتى

جاءوا له بهذه المرضعة.. شم رائحتها، التقم ثديها، عاد إلى صدرها، إنها أمه..!

التي كادت تفقد عقلها من شدة الحزن على فراقه لولا أن ربط الله على قلبها..

هذا الربط.. وهذا الجمع.. وهذا الرد... إنما هو لطف اللطيف، ورحمة الرحيم، وكرم الكريم، ورأفة الرؤوف التي تدرك العبد الضعيف.. حتى يعلم أن ربه هو الجبار الذي يجبر القلوب..!

وما سلب الله من عبدٍ نعمةً فصبر عليها إلا عوضه الله خيراً منها، فقد رد الله عليها ابنها ومع الرد إكرام..

فرعون الذي قتل مئات المواليد من بني إسرائيل ليمنع خروج موسى هو الآن بنفسه من يدفع أجرة الرضاعة لأمه كي ترضعه..

وليس فقط أجرة الرضاعة، بل تُحمل الهدايا والعطايا من قصره لبيت المرضعة!!

هو بنفسه يحميه، وينفق عليه، ويتابع تربيته، بل ويتربى في قصره وعلى بساطه وفراشه..

إنها عناية الله لا شيء غيرها...

﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾

لما قتل موسى الرجل القبطي شعر بالذنب وتحرج ضميره، وامتلأت نفسه بالغم..

والغم هو شدة الهم، وهو من مكدرات الحياة ومنغصات السعادة.

امتن الله على موسى عليه السلام بأن نجاه منه، فاستغفر ربه وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾

وكلمـا كان قلبـك حي والإيمان فيه متدفق ستشـعر بوخز ولـوم وتأنيب ولذع من داخله إن أخطأت أو زللت..

والله إذا أراد بعبده خيراً جعل له واعظاً من نفسه يحركه للتوبة، والأوبة والرجوع..

ومادام العبد على هذه الصفة من سرعة الأوبة فإن ربه يقابله ويعامله بالمغفرة..

يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

«وهل أراد الله أحدٌ بصدق، ولم يرده الله»..!

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾

الفتون لا يكون إلا لصفوة الخلق،، فهل سمعت أن أحداً يختبر الحجارة أو الورق؟!

إنمـا الفتْنُ يكون للذهب، وهـو إحراق الذهب بالنار، وكلما زاد إحراقه زاد لمعانه وصفاؤه وجودته وسبكه..

هذا الفتْنُ الذي يحصل للذهب هو نفسه الذي يحصل للمؤمن..!

وليسـت العـبرة بالنـار البسـيطة وإنمـا العـبرة بالإحـراق بالنـار المشـتعلة..

فكذلـك ليسـت العـبرة بالإختبـار العارض وإنمـا بقـوة الإختبـار وتكـراره، اختبار تلو اختبار..

وابتلاء تلو ابتلاء..

بماذا اختبر الله موسى عليه السلام؟؟

اختبره الله بالخوف...

الخوف كان جارياً في حياة موسى وانطبعت قصته بطابع الخوف..

اقترن الخوف بولادته، ثم زاد الخوف أكثر فألقته أمه في اليمّ..

ثم جاء الخوف حين قتل الرجل القبطي..

ثم خوفه من فرعون وبطشه فهرب وخرج من مصر خائفاً يترقب..

الخوف في مقام التكليم لما تحولت عصاه إلى حية تسعى..

الخوف لما جاء التكليف المباشر بالذهاب إلى فرعون ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾..

ثم الخوف في مشهد التحدي مع السحرة..

أُبتلي بكثرة المخاوف..

ابتلاه أيضًا الله بالغربة، ومفارقة أهله ووطنه وأمه.

ابتلاه بالخدمة ورعي الغنم، وتأمل هذه النقلة العجيبة الهائلة التي حصلت في حياته.. من شاب تربى في قصر ملك، يأكل أكل الملوك، ويركب مراكبهم، ويلبس لباسهم، حوله الخدم والحشم، حياةُ ترف ونعيم وراحة ثم هو الآن.... أجير!!

أجيرٌ يعمل عند غيره، يرعى له الغنم!!

من القصر.. إلى الحر، والشمس والرمال الحارة والغنم وخطر الصحراء!!

تأمل أن كل هذه الأقدار وهذه الاختبارات وهذه المشقة التي تقلَّب فيها موسى عليه السلام والله يعلم أنه نبيه.. بل هو يُصنع صنعاً على عين الله..

إذن لماذا كل هذه الابتلاءات؟؟

حتى تمضي سنن الله في خلقه، ومن سنن الله أنه لا يُمكّن للإنسان إلا بعد أن يُبتلى..!

وبعض الناس قد يكون طريقه للتمكين ضيقاً..

ضِيقٌ يتلوه ضِيق، حتى يُهيئهم الله لما اختارهم له.

فتكـون هذه الابتلاءات هــي مرحلة إعـداد وتهيئة..فالبلاء يُربــي والبلاء يقوي والقلوب تقوى بالمحن...

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾

الإصطناع هو اتخاذ الصنيعة..

بمعنى: الخير الذي تسديه إلى إنسان.

فيصــبح المعنى في حق موســى عليه الســلام، إني اخترتك واصطفيتك وأجريت عليك صنائعي ومنني ونعمي..

يقول ابن سعدي رحمه الله:

«وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ.. بذل غاية جهده، وسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك..

فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم؟

وما تحسبُه يفعل بمن أراده لنفسه واصطفاه من خلقه؟

عرضت لنا السورة أيضًا قصة آدم - عليه السلام -، ومن صور عناية الله به: أن خلقه بيده، وعلَمه الأســماء كلها وشرّفه وفضله بالعلم، أمر الملائكة بالسجود له سجود تحية وإكرام، أنعم عليه بنعيم الجنة فسكن فيها، وأيضًا توبة الله عليه بعد أن نسي العهد ونسي الوصية التي وصاه الله بها أن يأكل من شجرة معينة في

الجنة، وأن لا يستجيب لوسوسة الشيطان ثم تاب الله عليه ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

خُتمت السورة بعدة وصايا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويلحقُ به حملة رسالته من أمته:

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾

اصبر على كل ما يقوله أعداء دعوتك من قومك، لا تستعجل فلن يستتم أمر دعوتك إلا بالصبر.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾

انشغل بتسبيح ربك تسبيحًا مقترنًا بحمده ؛ فالتسبيح المتكرر آناء الليل وأطراف النهار هو دواءٌ ناجح لصرف كل ما في النفس من مؤلمات، ومزعجات، ومقلقات، ومحزنات تضيق بها الصدور وتتكدر بها المشاعر.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾

ترقّب يا محمد زمنًا قريبًا سيأتي تكون فيه راضيًا عن صبرك الذي صبرته، وعن تسبيحك الذي سبحته، إذ تنزاح عن نفسك كل مشاعر الكدر.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ﴾

دع عنــك المترفون الممتَّعون بزينــات الحياة الدنيا وأقنع بما آتاك الله، فما الدنيا إلا زمنٌ قليلٌ ضيئلٌ معدودٌ محدود حتمًا سينتهي وما ينتظرك عند ربك خيرٌ لك وأبقى.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾

انشــغل بالصــلاة وأمر أهلك بالصــلاة واصــبر عليها صبرًا مضــاعفًا شديدًا، اجتهد واســتكثر من الصلاة كمًا وكيفًا، فهي تحملك وتقويك وتسندك وتُشعرك بأنك دائم الوصل بالسماء.

﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾

تفرغ للعبادة وســنكفل رزقك وشــغلك وهمك كله، «يا ابن آدم تفرغ لعبادتي املأ صــدرك غِنى وأسدُّ فقرك وإن لا تفعل ملأت يدك شغلاً ولم أسد فقرك» صحيح ابن ماجه ٢/٣٩٣

فمن أراد الرزق فعليه بالصلاة..

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

الكرامــة والرفعة والشــرف وحســن العاقبة مرتبطــة بالتقوى، كلمــا كنت متقيًا تدفقــت عليك بركات من الســماء وفتحت لك أبوابًا مــن الأرض، فالله ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب، إنما هو ميزان التقوى فقط.

سورة الأنبياء

جاء في ترجمة الآمدي لعامر بن ربيعة أنه كان قد نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه، وقد أصاب أرضاً، فقال له: إني استقطعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وادياً في العرب، وقد أردتُ أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورةٌ أذهلتنا عن الدنيا ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾

سورةٌ مكية من أوائل مانزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مطلعها قوي وكأنه هزةٌ قوية تطرد عن القلب أعظم وأخطر داء يُبتلى به وهو داء الغفلة عن اليوم الآخر والإنغماس في مغريات الدنيا وشهواتها.

ذكرت حال الغافلين المعرضين ووصفت استماعهم للقرآن بأنه سماع لعب غير مبالين بما فيه.

ذكرت تخبطهم وترددهم في وصف الحق وعدم الاستجابة له فتارة يقولون عنه أحلامٌ مختلطة، وتارة يقولون بل اختلقه من غير أن يكون له أصل، وتارة يقولون بأنه شاعر ولو كان صادقاً فليأتنا بمعجزة مثل الأولين من الرسل.

ثم بدأت السورة تعرض لنا جملة من الأنبياء والمرسلين وتذكر جهادهم وتضحيتهم في سبيل الله وتفانيهم في تبليغ الدعوة.

والمتأمل في قصص الأنبياء في هذه السورة يجد أنها تلفت الأنظار إلى جانب مهم في حياتهم وهو الجانب التعبدي، وقد تكررت كلمة العبادة في السورة ما يقارب من أحد عشر مرة.

وفي هذا رسائل ربانية لكل داعية ومُصلح..

إذا كان الأنبياء رغم الأعباء الثقيلة التي على عواتقهم لم ينشغلوا عن العبادة فلا حجة لأحد بعدهم في ذلك.

فيا أيها المصلحون لا تضعفوا في عبادتكم وترضوا بالقليل منها فتكونوا مثل المصباح الذي يضيء للآخرين ويحرق نفسه.

العبادة هي زادكم الحقيقي الذي تستمطرون به المعونة من الله فعلى قدر العبادة تكون المعونة وتستمطرون به الرحمة فكلما كنت أكثر عبادة رُحمت.

كل من أراد أن يثبت ويقوى ويقف على قدميه للناس ويستمر في دعوته فلا بد أن يكون وتداً في العبادة ويرفع الجانب التعبدي عنده.

فهذه العبادات من صلاة وصيام ونوافل وذكرٍ وقرآن لها سرٌ عجيب في الفتح والبركة والتوفيق وصلاح القلب وحسن الأثر فيمن تدعونهم.

تيقنوا بأن القلوب تقوى وتصلح بأعمال أصحابها وتمرض وتضعف بأعمال أصحابها..

فكلما قلت عبادتكم دبّ فيكم الوهن والملل والتراخي والكسل وقلّ ثباتكم على الطريق.

والمتأمل في السورة أيضًا يجد فيها كلمة (ذكر) بإشتقاقها تكررت في اثنتي عشر موضعاً منها، والذكر هو دواء الغفلة وعلاجها.

انظر في ذكر الملائكة الذي ورد ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ تسبيحهم مستمر في كل آن ولحظة!

قال ابن بطال: من كان كثير الذنوب، وأراد أن يحطها الله عنه بغير تعب، فليغتنم ملازمة مكان مصلاه بعد الصلاة، ليستكثر من دعاء الملائكة واستغفارهم له، فهو مرجو إجابتهم لقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾.

عرضت السورة أيضاً دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والدعاء هو العبادة.

هو أقوى أسلحة المؤمن الذي يستدر بها عطاء الله،

بالدعاء تتفتح أبواب السماء ويسخر الله لأوليائه كل شيء فكل توفيق أصله من الله ومفتاحه الدعاء.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

تعريضٌ بالحاجة وليس طلباً صريحاً لها، وقد يكون التعريض في بعض الأحيان أقوى في استنزال المرحمة بك.

أظهر فاقته وفقره وتملّق بين يديه، ثم أقرَّ له بصفة الرحمة أنت أرحم الراحمين، فكانت النتيجة فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر...

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

دعوة مباركة كلها تهليلٌ وتسبيحٌ وتوحيد، بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له..

قال القصـاب: «التهليل والتسبيح يجليان الغموم وينجيان من الكرب والمصائب، فحقيقٌ على من آمن بكتاب الله أن يجعلها ملجأ في شدائده ومطية في رخائه».

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾

استمطر سحائب لطف الله بهذا الدعاء والثناء، يارب أنت خير من يبقى بعد كل مـن يموت وخير من يخلفني بخير فلا تتركني وحيـداً بلا ولد ولا وارث، فجاءته العطاءات

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ...﴾

وبعد هذه الدعوات والعطاءات

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَـارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾

وكأنها تدلك على مفاتيح الفرج

سارع في الخيرات فلا تدع فضيلة وعبادة تقدر عليها إلا سابق وبادر إليها.

أكـثر مـن الدعاء واجعله مملـؤاً رغبةً ورهبـةً لله فالدعاء يتجـاوز كل المقاييس ويخترق كل الحُجب ويفتح كل الأبواب.

دثر قلبك بخشـوع وانكسار لا ينفك عنه واعلم أن أوعية الدنيا إذا كُسرت فُرغت من كل شيء إلا القلب لن يمتلىء حتى يُكسر.

سورة الحج

مـن أعجب سـور القـرآن، فيهـا المكي والمـدني، والليلـي والنهاري، والحضـري والسفري والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه.

سـورةٌ جاءت لبيان منازل المسير إلى الله، وكيف يسير السائر وأيُّ المراحل يقطع وكيف يكون قلبه أثناء السير.

افتتحت السورة بزلزلة وصفها الله تعالى بأنها شيء عظيم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

لمـا نزلـت هذه الآيـة لم يُرى أكـثر باكيًا من تلـك الليلة، زلزلة عظيمة سـتطرح المرضـعة رضـيعها، وتضـع كل ذات حمل من الإنس والدواب والحشرات حملها، وتـرى الناس أصـحاب العقول والكياسـة والحكمـة تطيش عقولهـم ويتخبطون وكأنهم في حالة سكر من هول ما يرون!

فرحـل قلبـك للآخـرة، واجعلها نصـب عينيك، لينصـلح قلبك وتعمـر باطنك بالتقوى، فتصبح أكثر عملاً وأكثر مسارعة، وأكثر خشية وضراعة وإخباتاً.

فمن سار إلى الله لا يقضي عمره في غفلة وعبث ولهوٍ وجهل ثم يُفاجأ بالموت فإذا به يخرج من الدنيا صفرًا لم يستعد بالعمل.

من أهم مواضيع سورة الحج: (التوحيد)

فهي سورةٌ تقطر بالتوحيد، ضرب الله فيها مثلين:

الأول: قوله تعالى ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾

فالتوحيد مثله مثل السماء والسماء مرفوعة محفوظة، والمشرك مثله مثل الشيء الساقط من السماء فهو عُرضة لكل الآفات إما أن تمزقه الطير وتسفه الرياح، وإما أن تحتوشه الشياطين وتضيع عليه دينه ودنياه.

والثاني: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾

نداءٌ لكل الناس أن يلقوا أسماعهم وقلوبهم لهذا المثل، بأن مثل ما تدعونه من دون الله من وثن وصنم وميتٍ وشجر وأضرحة وقباب وأولياء كل هؤلاء لو اجتمعوا أن يخلقوا ذبابة والذبابة أصغر المخلوقات فلن يستطيعوا، بل لو وقع هذا الذباب على المعبود في تصورهم وأخذ منه شيئًا ما استطاع أن يرده منه لشدة ضعفه!!

وكلاهما تقرير أن الركيزة والأساس الذي تُبنى عليه الاعمال هو التوحيد فإذا هدمتَ التوحيد وضيعته فلا تتعب نفسك فلن يُقبل منك عمل.

عرضت السورة أيضًا محور (التعظيم):

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾

التعظيم هو دين وملّة وقُربى، ومقصد من أعظم مقاصد الدين، والله إذا أراد بعبده خيرًا رزقه التعظيم.

ومن أعظم الحرمات التي يجب أن تُعظّم (البلد الحرام) قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله حرم مكة حين خلق السماوات والأرض».

إنها بلدٌ حرام،

هي أشرف وأعظم بقعة على وجه الأرض،

هي أحب أرض الله إلى الله،

ليست كغيرها من جهة الثواب والعقاب:

مسح الحجر الأسود والركن اليماني يحطان الخطايا حطًا.

من طاف بالبيت فإنه لا يضع قدمًا ولا يرفع أخرى إلا حط الله عنه خطيئة وكتب له بها حسنة ورفع له بها درجة.

ما أهل مُهلٌّ قط إلا بُشّر، ولا كبر مكبّر قط إلا بُشّر بالجنة.

الصلاة فيها تعدل مئة ألف صلاة.

تأمل في اسمها (مكة) مشتقٌ من المكّ. والمك في اللغة هو الامتصاص

فكأن مكة تمتص ذنوب الحجاج والمعتمرين.

فإياك أن تذهب للبيت الحرام إلا وأنت معظمٌ له، فإذا وصلت هناك أخرج أحسن

ما عندك، وأتقن عملك بأفضل ما تستطيع وأري الله من نفسك خيرًا.

عرضت السورة أقسام الناس:

الصنف الأول: المتبّع المقلّد لأئمة الضلال وهذا الصنف جاهل من السهل أن يُخدع ويُضحك عليه.

الصنف الثاني: المُضّل، الداعي للضلال، دعاة الشر، دعاة الفتنة الذي تتجارى وتلعب بهم الأهواء.

الصنف الثالث: خفيف الإيمان الذي يعبد الله على حرف ومع أول فتنة وأول إختبار وأول عقبه انكفأ وانقلب على وجهه وتراجع وانتكس.

الصنف الرابع: هم أهل الإيمان أهل الثبات، الذين لم يبّدلوا ولم يحرّفوا ولم يروغوا روغان الثعالب، بل وفّوا ما عاهدوا الله عليه.

من المواضيع التي طرقتها سورة الحج أيضًا موضوع القلوب:

القلب المريض: قلب فقد عافيته، فقد إحساسه ونشاطه، بدأ المرض ينتشر فيه بدأ السواد يعلوه، وكما أن أمراض البدن تتفاوت فكذلك أمراض القلوب تتفاوت، وأثرها يتفاوت، بعضها يُكدّر وبعضها يؤذي، وبعضها يصيب في مقتل!

القلب القاسي: قلبٌ فقد الاتصال بربه، حيل بينه وبين ربه، قلبٌ عليه أقفال وأغلفة وأكنة كأنها توابيت قد غطت قلبه، فكثرت وحشته وجفت دموعه عقوبة من الله يضربها على بعض القلوب فتتحجر وتتصلب حتى تصبح أقسى وأصلب

من الحجارة والعياذ بالله، وأبعد الناس عن الله صاحب القلب القاسي.

ومن أسباب قسوة القلب:

- الانصراف عن القرآن وقلة قرائته.
- نقض العهد مع الله أو مع الناس.
- الظلم وأذية الخلق والتسلط عليهم.
- الإغراق في الدنيا والمتع والملذات.
- قلة أعمال الخفاء.
- البعد عن مجالس العلم فالعلم يليّن القلب ويرطبه ويندّيه فأكثِر من سماع الخير يسلم لك قلبك.

القلب المخبت: الخبتُ: هو المكان المنخفض، مكان تجمّع الماء.

وإخبات المؤمن هو انخفاضه وسكونه وتطامنه وانكساره لربه.

أحب القلوب إلى الله قلبًا ناكس الرأس بين يدي ربه، قلبًا قد تمكنت منه هذه الكسرة، يرى نفسه كالإناء المكسور الذي ليس فيه شيء ولا يُرجى منه نفع إلا أن يُجبر من صانعه وما أقرب الجبر والنَصَر منه...

عرضت السورة سبع اقترانات بين أسماء الله تعالى من الآية رقم (٥٩) وحتى الآية (٦٥):

الإقتران الأول: عَلِيمٌ حَلِيمٌ الاقتران الثاني: عَفُوٌّ غَفُورٌ

الاقتران الثالث: سَمِيعٌ بَصِيرٌ
الاقتران الرابع: الْعَلِيُّ الْكَبِير
الاقتران الخامس: لَطِيفٌ خَبِيرٌ
الاقتران السادس: غَنِيٌّ حَمِيدٌ
الاقتران السابع: رَءُوفٌ رَّحِيمٌ

لتنبّه السائر: إذا أردتَ أن تسير إلى الله فلا بد أن تعرف من هو الله.
فكما ازددت معرفة بالله ازددت تعبدًا وتألهًا وتعظيمًا وخوفًا وطمعًا ورجاءً.

الاقتران الأول: عليمٌ حليم

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)﴾
الأيه تتكلم عن هجرة وجهاد في سبيل الله أعمال جليلة، طاعات كبيرة ترتب عليها وعدٌ من الله ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ رزق لا ينقطع ولا ينتهي ولا يزول بل هو مستمر في الدنيا والآخرة.
ومع ذلك خُتمت الآيات ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾
وصفة الحلم لا تأتي إلا حين يذنب العبد فيحلم الله عليه ولا يعاقبه.

فإلى ماذا يشير هذا الاقتران الذي جاء في سياق العبادات والطاعات والأعمال؟

لا أحد يعلم ما في الصدور إلا الله حتى لو كان الإنسان في أجلّ وأعظم العبادات قد يقع منه شيء من التقصير والخطأ، قد يرد على قلبه شيء من النزغات والواردات والخواطر ولكن الله مع علمه بما يدور في القلوب فهو حليم، يعامل

عبـاده بحلمـه، لا يعاجلهم بالعقوبة ومـن رحمة الله بنـا أن الله لم يُلجئنا لهذه الوساوس والتقلبات والواردات ورحم ضعفنا وحَلُمَ علينا.

الاقتران الثاني: عفوٌ غفور

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾

جاء الاقتران في سياق الظلم والأذى، من ظلَمك من آذاك من تسلط عليك.. لك أن تعاقبه بالمثل وتسترد حقك، هذا مباحٌ لك في الشريعة.

ولكن الدرجة الأعلى والأكمل والأرفع أن تعفو عنه..!

وذكّـرك بعفوه هو سـبحانه وبحمده عنـك بالرغم من كثرة خطاياك وإسـاءتك وتقصـيرك وتعديك على محارمه وأوامره ونواهيـه ومع ذلك فهو يعاملك بالعفو وبالمغفرة، فكأن هذا الاقتران ينقلك لدرجة عالية جدًا في تعاملك مع الناس.. عامل عباده بما تحب أن يعاملك الله به، فكما تكون للناس يكون الله لك.

الإقتران الثالث: سميعٌ بصير

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

جاء هذا الاقتران في سياق بيان قدرة الله بإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل ثم خُتم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ فيه إشـاره أنك لا تسـتطيع أن تختفي عن نظر الله لا في الليل ولا في النهار، لا يخفيك عنه شيء لا أبواب ولا جدران ولا بيوت ولا أقفال.

كما أنه يراك في النور يراك في الظلام، كما أنه يسمع جهرك فهو يسمع همسك وأنينك بل يسمع حتى الدبيب ذلك الصوت الخفي الذي لا يكاد يسمعه أحد.

فإذا عرفت هذه المعرفة عن ربك ازداد حياؤك، وازدادت مراقبتك، وأنزلت نفسك بمنزلة المراقبة فما عاد يسهل عليك ذنب ومن هنا تزكو نفسك.

الاقتران الرابع: العليُّ الكبير

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

اقتران جاء في سياق آيات التوحيد، الله هو الحق، الله هو المعبود له الكبرياء والعظمة ليس فوقه شيء، هو أعلى من كل شيء، له علو الذات وعلو القهر وعلو الأسماء والصفات، فمهما كان الذي أمامك له نفوذ وله سلطان وأعوان وقوه ويستطيع أن يفعل ويفعل بك فالله أكبر منه فلا تخف إلا الله، ولا تستغيث إلا بالله، ولا تركن ولا تلجأ إلا لهذا الرب العلي الكبير فمن تقوّى بالله قواه.

الاقتران الخامس: لطيف خبير

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

جاء هذا الاقتران في سياق إخراج الزرع ولكي تدرك المعنى انظر إلى هذه البذرة حين تُوضع في الأرض وتُسقى ويصل لها الماء ثم تبدأ بإخراج خيطًا دقيقًا رفيعًا جدًا لا

يكاد يُرى لو وضعت يدك عليه أو رجلك لتهشم مباشرة، ومع ذلك يشق هذا الخيط الرفيع الأرض ويكبر ويكبر حتى يكون شجرة لها عروق وساق وأغصان وأوراق وثمر.

لو فهمت هذه الصورة لعرفت أن الله عز وجل خبيرٌ بك وبأحوالك وأوضاعك وهمومك وأحزانك.. خبيرٌ بقلبك، بنقاط ضعفك، فيسوق لك مصالحك بلطف، يوصل لك إحسانه برفق من حيث لا تشعر، قد يجري عليك من الأقدار في ظاهرها تعب ومشقة وألم وفقد والخير كل الخير في داخلها.

ومن لطفه سبحانه وبحمده أنه إذا أراد أن يكرمك وينصرك جعل مالا يكون سببًا في العادة هو أعظم أسباب نصرك، يوسف - عليه السلام - لما سُجن وأراد الله أن يخرجه من السجن ما أمر الله جدران السجن أن تُدك أو أن يموت الظَلمة الذين سجنوه ولم يرسل عليهم صاعقة عقوبة لهم إنما جعل الملك يرى رؤيا تكون سببًا خفيًا لطيفًا ينقذ به يوسف من السجن!

إذا أراد اللطيف أن يصرف عنك السوء جعلك لا ترى السوء أو جعل السوء لا يعرف لك طريقًا، أو جعلكما تلتقيان وتنصرفان عن بعضكما وما مسَّكَ منه شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

الاقتران السادس: الغنيُّ الحميد

قال تعالى: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

جاء الاقتران في سياق مُلك الله للسماوات والأرض وما فيها ولما ذكر الله مُلكه ذكر غناه.

الله خلقنا وهو غنيٌ عنا، غير محتاج لنا، ولا مستكثر بنا من قوة، بل غناه غنىً مطلق ومع غناه فهو حميد، محمود على كل أفعاله ولا يمكن أن ترى في أفعاله نقصًا أو خطأً أو ظلمًا أو عيبًا، فكلما استوعب العبد هذا الخلق وهذا المُلك وهذا الغنى وهذا الحمد زاد تعظيمه وزاد إجلاله وزادت خشيته ورهبته من ربه.

الاقتران السابع: رؤوفٌ رحيم

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

جاء في سياق التسخير وأن الله سخر هذا الكون للإنسان حتى ينتفع منه وهذا من رحمة الله ورأفته، فلولا هذا التسخير لأصاب الإنسان جهد عظيم ومشقة بالغة إذ كيف يعيش في كون لم يُسخر له؟؟

وكلما استحضر الإنسان رحمة الله ورأفته سيطمع في ربه كثيرًا ويؤمله كثيرًا ويبقى رجاء الله في قلبه أكبر من كل شيء.

في ختام سورة الحج، وبعد تلك المنازل التي سار فيها السائر منزلة عظيمة بدءًا من تخلية قلبه وتطهيره وعمارته بالتقوى ثم استحضار الآخرة وترحيل القلب لها ثم مِلئ القلب بالتوحيد وبمعرفة الله بأسمائه وصفاته ثم بالتعظيم لهذا الرب العظيم ثم مواصلة السير بالذكر والعبادة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

وفي خلال هذا السير أنت تحتاج إلى جهاد جاء قول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ فمن ثبت أفلح، ومن دام ثباته قطف ثماره، ومن سار على الدرب وصل..

إنها سـورة الحج..... سورةٌ توصلك إلى الله حتى لو كنت ضعيفًا أو ثقيلاً أو كان فيك عرجٌ أو كنت تمشي حبوًا..!

سـورة تأخذ بيدك لتظل سـائرًا إلى ربك فلا تنقطع عنه و لا تبتعد و لا تيأس من نفسك.

هذه السـورة إن قرأتها بقلب محب ستجدها كالظل الوارف الواسع الذي يستظل به ذاك المسافر بعد مشيه في صحراء قاحلة شديدة الرمضاء.

وأكبر وأعظم ظل فيها هو ظل التوحيد، ولو لم نخرج من هذه الدنيا إلا بالتوحيد، ووقفنا بين يدي ربنا كصاحب البطاقة الذي مُلئت سجلاته بالخطايا مدّ البصر ثـم أُخرجت له تلـك البطاقة، بطاقة كُتبـت فيها كلمة التوحيـد (لا إله إلا الله) فطاشت بالسجلات ورجحت البطاقة..

إذا أحببت التوحيد بصـدق وعشـت حياتك كلهـا وأنت في دائرتـه وملتفٌ حوله كالفرس في آخييته سينقذك الله بالتوحيد..

إذا كان الله قـد غفـر لبغي لأنها سـقت كلبًـا فكيف بمن يسـقي قلبه وقلب غيره بالتوحيد..

اللهـم أحينـا على التوحيـد وأمتنا علـى التوحيد ونجنا بالتوحيـد واجعلنا ممن يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب برحمتك لا بأعمالنا....

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

تم الجزء الثالث من البطاقات القرآنية

فهـــرس المحتـــويات

اســـم الســـورة	رقم الصفحة
ســـورة الفـاتحـــة	٢
ســـورة البقـــرة	٤
ســـورة آل عمـــران	٦
ســـورة النســـاء	٨
ســـورة المـــائـــدة	١٠
ســـورة الأنعـــام	١٤
ســـورة الأعـــراف	١٧
ســـورة الأنفـــال	١٨
ســـورة التـــوبـــة	٢١
ســـورة يـــونـــس	٢٤
ســـورة هـــــود	٣٠
ســـورة يـــوســـف	٣٧
ســـورة الـرعـــد	٤٢
ســـورة إبـراهيـــم	٤٧
ســـورة الحجـــر	٥٢
ســـورة النحـــل	٥٧
ســـورة الإســـراء	٦٣
ســـورة الكهـــف	٦٩
ســـورة مـريـــم	٧٥
ســـورة طـــــه	٨٠
ســـورة الأنبيـــاء	٨٩
ســـورة الحـــج	٩٣